التَّفكيرُ

(مِنَ التذكُّر إلى التفكُّر)

أ د. عقيل حسين عقيل

2023م

طرابلس ليبيا

المحتويات

المقدِّمةُ 3

التذكُّرُ 5

الفرق بين التذكُّر والتذكير 17

التفكُّرُ 20

مستوياتُ التفكُّر 38

التفكُّر في المستحيل 38

التفكُّر في المعجز 58

التفكّر في الممكنُ 70

التفكير 83

التفكيرُ في أثناءِ زمن التفاوض 97

العمل في دائرة التفكير 105

فكِّر فيما تُفكِّر 113

حُسنُ التفكير صُنع أمل 127

صدر للمؤلّف 147

المؤلّفات 149

المؤلّف في سطور 170

المقدِّمةُ

التفكير عمليَّة عقليَّة يغوص العقل البشري فيها بحثًا وكأنَّه يجري عمليَّةً حسابيَّة يريد من وراءها معرفة الفوائد والمكاسب، أو يريد من وراءها معرفة ما له وما عليه، وبين هذا وذاك يريد أن يعرف أين هو واقفٌ، أو أين يجب أن يقف، أو وكأنَّه يريد بتلك الحيويَّة الفكريّة أن يخرج من تلك التأزّمات بسلام.

ولذا فالتفكير عمليَّة استقصائيَّة تبحث في المعقّد لتفكّ عقده، بغاية إدارة عجلة التفكير إلى الأمام بدلًا من التوقف أو دورانها إلى الخلف.

ومع أنَّ كل المخلوقات تعقل غريزة وتدبُّرًا، فإنَّ الإنسان على رأسها جميعًا؛ ولذلك بعقله تفكيرًا يميَّز بين ما يجب ويقدم عليه، وما لا يجب ويتجنَّبه أو يحيد عنه؛ ومن هنا تفكيرًا يحدد الأهداف، ويصوغ الفروض أو التساؤلات، ثمَّ يرسم الخطط والاستراتيجيَّات؛ بغاية صناعة المستقبل وإحداث النُّقلة وبلوغ المأمول ونيله.

ولأنَّ موضوع مؤلَّفنا: التفكير (من التذكُّر إلى التفكُّر) كان علينا أن نبرز المفاهيم الخاصّة ونبيِّن كلّ منها وفقًا لكلّ متغيرٍ من متغيرات هذا

العنوان، ثمَّ نبرز ونبيَّن المشترك الذي تتمحور عليه هذه المفاهيم؛ لكي نُيَسِّرَ للقراء هذا الموضوع الفكري دلالة ومفهومًا.

ومع أنَّ مؤلَّفنا يبحث فكرًا، فإنَّ علاقة قويَّة تربط بين تفاصيل متغيرات مؤلَّفنا والزّمن؛ ذلك لأنَّه لا تفكير إلَّا والزّمن وجودًا، ولا تفكير بغاية الاستهلاك، بل التفكير الجاد بغاية ملء الفراغ، وصنع الأمل، وإشباع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، وهذه كلّها تستوجب بذل الجهد لبلوغ المأمول والفوز به ونيله.

ولذلك ميّزنا بين من وهب الله له العقل ويفكّر من أجل نفسه والغير، حتى يقتنص حلًّا يخرجهم جميعًا من التأزُّمات، وبين من وهب الله له عقلًا ولا يفكر إلَّا في نفسه ولا يهمّه الغير، وبين من وهب الله له عقلًا ولا يفكّر في نفسه ولا يفكّر في الغير.

ثمَّ بيَّنا أهميّة التدبُّر الذي لا يرتبط إلَّا بحاضرٍ، وأهميَّة التذكُّر الذي لا يرتبط إلَّا بماضٍ، وأهميَّة التفكُّر الذي يرتبط بالأزمن الثلاثة وكأنَّه لا وجود لفواصل بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ.

أ د. عقيل حسين عقيل

طرابلس ليبيا

2023م

التذكُّرُ

التذكُّرُ مراجعة عقليَّة تفحصيَّة تطوي الزّمن الماضي بغاية الاسترجاع وعيًا بتلك الأحداث، أو الظّروف، أو المواقف، أو ذلك التَّاريخ الذي تمت معايشته والدِّراية به لتستحضره معلومة من بعد معلومة. وفي هذا الشأن تختلف مقدرة العقول من شخصٍ إلى آخر مما يجعل البعض يُذكّر البعض بما نسيه؛ كونه أحد شهوده.

ولهذا فالتذكُّرَ وعيًّا ودراية يتطلَّب مقدرة عقليَّة للاستدعاء من ذلك الوعاء أو المحفظة (الذَّاكرة) التي هي دائمًا في حاجة للتفطين؛ كونها محفظة المعلومات والمعارف والمخزن الحصين الذي لا تكون مفاتيحه بيد الغير، إنّها مكمن الأسرار والصندوق الأسود للعقل البشري، الذي منه تستدعى المعلومة تذكُّرًا وفقًا للطلب أو الأمر المرغوب إرادة، وهنا تكون المعلومة صادقة، أمّا إذا كان استدعاء المعلومة نتاج أفعال الكره والإجبار؛ فلا شكّ أنّها ستكون للضرورة ملبِّية للأمر، ولكنَّ الشكوك والظنون تملأها.

ولأنَّ الذّاكرة مكمن الأسرار ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانية، فهي قابلة لأن تُنشّط بمزيدٍ من الانتباه والدّراية من خلال عمليَّات التذكّر والتدبّر والتفكّر؛ فينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد أن لا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني وإجراء عمليَّات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين الدّقيق

والأدق منه، ومن ثمّ تمكّنه من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع؛ فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتيسّر له مشاهدة وملاحظة الآخرين وردود أفعالهم تجاه الغير.

ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته تذكُّرًا حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد نهضة وارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الغير، حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تذكُّرًا وتفكيرًا في نفسه، حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التذكّر والتفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة؛ ولهذا فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يتذكّرون أو يفكّرون فيه حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

ولهذا فتفطين الذّاكرة لا يكون إلّا نتاج الوعي بأهميَّتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من ورائها آمال تحدث النُّقلة والرّفعة بغاية بلوغ المأمول ونيله؛ ولذا فتفطين الذّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي به تستدعى المعلومات من المحفظة تذكُّرًا، والذي به يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة؛ ومن هنا ينبغي الارتقاء فكرًا وعلمًا

ومعرفةً وخُلقًا، وأسلوبًا، وإلّا سيجد البعض أنفسهم جالسين في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة، وهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويُشَدّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرًا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، وبين الحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة أمل وارتقاء.

ومع أنَّ الذاكرة حافظة، فإنَّها قابلة لأن توسّع معرفة، وتُنشّط تذكّرًا من خلال تمكّنها من معرفة الموروث المعرفي الواسع، وتنشّط تدبّرًا من خلال حسن الانتباه والالتفات لما يجب وقت وجوبه، وليس بعد أن يفلت ويصبح ماضيًا، كما أنّها تُنشّط بالتفكّر الذي يمدُّها بالحيويّة المحفِّزة على بلوغ الأمل.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيًّا حيث لا إمكانيَّة للعيش منفردًا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويفطّنه ويعلّمه كيف يتدبّر أمره وأمر من تربطه به علاقات، ومع أنَّ هذه قاعدة اجتماعيَّة أخلاقيَّة فإنَّه كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فآدم وزوجه لم يمرّا بهذه المرحلة، وذلك بأسباب الخَلق الآدمي المتكامل؛ إذ لا طفولة لهما ولا مراحل نمو قبل النضج، فهما قد خُلقا على النضج خلقًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[1]، وبالتّالي ليس لهما ما يتذكّران، ولكن بعد أن علّم الله آدم وأنبأه،

[1] نوح 17.

أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، لِيُذكّر به الغير: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[2]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حُجَّةٌ؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي اختلافًا.

أمَّا على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانيَّة متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي وتذكّر ما يحتويه من تاريخ وعبر ومواعظ من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيًّا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيَّام. وقد يكون الخوف حاضرًا فيها؛ لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوَّة؛ فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائمًا على درجة عالية من الحذر؛ كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُفليَّة ومؤدّيًا إلى ارتقاء مأمول.

[2] البقرة 33.

فالذَّاكرة محفظة المعارف والخبرات والتجارب الماضية التي يمكن الاتعاظ بها في زمن التدبّر، والوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفًا على إرثٍ إنساني يمثل حقبة مِن حقب الماضي؛ فالتَّاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانيَّة سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويًا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبًا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطلب فيما بعد حاجةً ملحةً تكون حاضرة بشكلّ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيًا للبداية الافتراضيَّة التي كانت السَّبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الذَّكرة للماضي فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانيَّة تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدَّائم متحقِّقًا في كلّ زوايا الماضي؛ ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنيَّة والمستقبليَّة حلولًا مهمة، إلاّ أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في بعض القضايا متحققًا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ فتكون الصّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون

في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة تُمكّن الذَّاكرة وعى ويقظة.

ومع أنَّ في الذَّاكرة يدخل الماضي حقل التراث، فإنَّه لم يكن من باب الجمود كأيِّ إيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح الموقظ لما يجب أن يكون في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فالإنسان يمر بظروف تكاد تتشابه كثيرًا على مر العصور؛ فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة؛ ممّا يطرح في الذَّاكرة وجود آراء مختلفة؛ تجرُّ إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلّ تحقّق الأحداث العظام في الماضي يمثّل أحد هذه الاختلافات؛ فالإنسان يختلف تصرّفه كثيرًا حتى في القضية الواحدة، إذ تحكمه الكثير من الظروف التي تتنوّع فلا تقف عن حدٍّ معين؛ فيكون الارتماء ممثّلًا بتداعيات مختلفة تطرح من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النّهاية عند أعتابها؛ فتنساق الأمور في الذَّاكرة إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية إلّا أنّها ممثّلة لاتجاهات فكريَّة كانت وراءها، ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول؛ فالذّاكرة تحمَل الكثير من الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعيَّة التي يمكن أن تطرح على أيِّ صعيد، فلم يكن هناك حلًّا واحدًا لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا إلى درجة التماثل.

وفي الذّاكرة يكتنف الماضي الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغه عليها من طروحات، ولهذا نجد

يومًا بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة، لكن هذا يدلل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطَّاته الشّاخصة التي تكون فيما بعد دروسًا يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به الإنسان، ولهذا وجب العمل على تفطين الذّاكرة من خلال تمرينها تدبّرًا، وتنشيطها تذكّرًا وتفكّرًا.

ومع أنَّ للذَّاكرة علاقة بالتَّاريخ من حيث أنّها محفظةُ أحداثه وقضاياه، ولكن التَّاريخ دائمًا يطرح مغايرات مهمّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزّمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائمًا إلى حلحلت ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة المعالم، وهنا يكون السَّير في هذا الرّواق منكفيًا على تجارب حاضرة وملبّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة كونها تمثّل امتدادًا مطلوبًا، والتَّاريخ فيه من السّعة ما يجعل الكثير من المقولات شاخصة في كلّ زمان ومكان، فمقولة (التَّاريخ يعيد نفسه) تتكرّر على كثير من الألسنة لكنَّها كما نعتقد أنّها لا تمثّل تشكيلًا عامًا في هذا النسق الإنساني؛ ولذا وجب تفطين الذَّاكرة؛ لكي لا يضيع التَّاريخ ولا يزوّر، ومع أنَّ الذَّاكرة حاوية التَّاريخ وحافظته، فإنّها لم تكن جزء منه، ولهذا أحداث التَّاريخ تتكرر والذَّاكرة لا تتكرر؛ فالتكرار قد يحصل لكنَّه هل يحصل كما حصل في الماضي؟

هذا التساؤل يفضي بنا إلى أن نقول:

إنَّ التَّاريخ يمكن أن يعيد نفسه، لكن هذه الإعادة لا تكون بالتطابق التّام، لأنّ هذا الأمر يكون من الصّعوبة بمكان أن يتحقّق، ومع ذلك فالتّجارب الإنسانيَّة متشابهة ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم بشكلّ أو بآخر في الوصول إلى حلّ حتى وإن كان افتراضيًّا.

ولأنَّ التذكّر حيويَّة العقل فإنَّ كلّ التشكيل الذي ذهبنا إليه يكون الخوف في الذّاكرة حاضرا فيه؛ كونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوّة، فالبحث عن حلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّزه ويرشده بطريقة أو بأخرى إلى البحث عن حلّ يكون من بعده سقوط أو تبدّد كلّ المخاوف القائمة؛ ولذا يكون الاستشعار في هذا التوجّه قائمًا على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف الأوّل الذي كان محفّزًا بدرجة جعل من آليات البحث عن حلّ خاضعة لهذا الخوف، وما سبقه من أحداث فيها من التشابه ما فيها، وفيها من الاختلاف ما فيها، وفيها من المتوقّع وما لم يكن متوقّعًا، ونتيجة لما تحمله الذّاكرة من متناقضات تاريخية؛ فهي دائمًا في حاجة للتفطين

والتنشيط حتى لا تُفقد العلوم والمعارف والخبرات والتجارب والعبر والمواعظ[3].

وعليه:

يعد التذكّر الفكري عمليَّة من عمليَّات الفعل العقلي المتعلّق بالمراجعات والاستقراءات بغاية الاستنباط والاستمداد الممكِّن مِن تدبُّر الحاضر وصُنع المأمول والتفكير فيما يحفّز على بلوغه ونيله.

ويمثل الماضي خزينًا معرفيًّا متعدّدًا ومتنوّعًا، بما يستثير العقل ويحفّزه على الانتباه والأخذ بما يجب اتعظًا، فهو حافل بالكثير من التجارب المختلفة التي كان لها حضور واضح ومؤثّر سواء أكان ذلك على مستوى السّلب أم الإيجاب، ولهذا فإنَّ الوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفًا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي، والتَّاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانيَّة سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويًا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبًا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطّلب فيما بعد حاجةً ملحةً تكون حاضرة بشكلّ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيًا للبداية الافتراضيَّة التي كانت السّبب في هذا الحضور.

[3] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 124 . 127.

إنَّ استدعاء الماضي تفكيرًا فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانيَّة تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدّائم متحقِّقًا في كلّ زوايا الماضي؛ ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنيَّة والمستقبليَّة حلولًا مهمّة إلَّا أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في كثير القضايا متحقّقًا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ ولذا تكون الصّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة.

ويدخل التفكير الماضي حقل التراث لكن ليس من باب الجمود كأيِّ إيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح، فالإنسان يمرّ بظروف تكاد تتشابه كثيرًا على مر العصور؛ فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة؛ ممّا يطرح هذا الاختلاف وجود آراء مختلفة وقد شكلّت هذه النهايات ممرّ تجرّ الأمور بعد ذلك إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلّ تحقّق الأحداث العظام في الماضي يمثّل أحد هذه الاختلافات؛ فالإنسان يختلف تصرّفه كثيرًا حتى في القضية الواحدة؛ إذ تحكمه الكثير من الظّروف التي تتنوّع فلا تقف عند حدٍّ

معين؛ فيكون الارتماء ممثّلا بتداعيات مختلفة تطرح من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النّهاية عند أعتابها؛ فتنساق الأمور إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية إلا أنّها ممثّلة لاتجاهات فكريَّة كانت وراءها، ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول، فالماضي حمل الكثير من الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعيَّة التي يمكن أن تطرح على أيِّ صعيد، فلم يكن هناك حلًّا واحدًا لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا.

وعليه فإنَّ التذكّر يلفت الانتباه إلى أهميَّة الدّروس المتشابهة أو المتماثلة بغاية الاتعاظ وأخذ العبر وتفادي ما من شأنه أن يتكرَّر بذات المعطيات فيعيد نفسه وكأنَّ الماضي لم يمضِ عليه بأعوامه ودهوره.

ولهذا فالتذكُّر يمكّن المتدبِّرين أمرهم في زمنهم الحاضر من الإصلاح والتصحيح كسبًا للوقت، واختصارًا للجهد، وتوفيرًا للإمكانات، ومن ثمَّ يخرجهم من التخبُّط والحيرة؛ قال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}[4].

في مفهوم هذه الآية جاء الأمر صريحًا للنبي محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام بأن يذكّر النَّاس بالحقّ لعلهم يهتدون رغبة وإرادة؛ ذلك لأنَّ المهتدي رغبة وإرادة يكون أكثر النَّاس تمسّكًا بالحقِّ، وفي المقابل من يُجبر ويكره على الاتباع ولو كان الحقّ سيكون متخليًا عنه متى ما سنحت له

[4] الغاشية 21، 22.

الفرصة (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ). فهنا يتعلّق أمر التذكّر والتذكير بالمعجزات المنزّلة أمرًا ونهيًا، وهي الآيات التي تخبر عن كل ما أنزل متحقّقًا، وتبلّغ عمَّا سيتحقّق لا محالة، أي إنَّها المذكّرة بما وقع وحدث وبما سيقع ويحدث يوم أن يأتي يومه.

أمَّا قوله (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) فمفهومها يُرسّخ: أنَّه ليس للرّسول إلَّا التذكير، أي لا خيار له في التذكير، وفي المقابل يصبح الخيار للمذكّرين بالقرآن رغبة وإرادة: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}[5].

ومع أنَّ الوعيد لا يتحقّق إلَّا في الزَّمن المستقبل فإنَّ التذكير به حقّ؛ بغاية تجنّبه قبل أن يتحقّق؛ ذلك أنَّه اليقين الذي لا يستدعي إلَّا التسليم به حيطةً وحذرًا قبل أن يأتي يومه، وإلَّا سيكون الأوان وقد فات؛ ولهذا ليس للنبي إلَّا التذكير به قبل أن يصل يومه. فالله تعالى مع أنَّه يعلم بما يقول المشركون من تكذيب فإنَّه لا يقر الإكراه والجبر على الدين؛ ذلك أمر الله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[6].

وبغاية مزيدٍ من التدبّر ينبغي أن نميّز بين مفهومي (التذكّر والتذكير).

---

[5] ق 45.

[6] الكهف 29.

الفرق بين التذكُّر والتذكير:

التذكُّر: هو الفعل في ذاته، وهو الذي يستدعيه المتذكّر بنفسه؛ قال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}[7]. يفهم من هذه الآية الكريمة أنَّ أهل النَّار لما أدخلوا إليها زمرًا تذكّر كلّ واحدٍ منهم افعاله، ومع أنَّهم تذكّروا ما فعلوا، فإنَّ الذكرى لن تنفعهم أبدًا؛ ذلك لأنَّ الفرصة أعطيت لهم وقد ضاعت من بين أيديهم؛ كونهم ذُكّروا تذكيرًا حسنًا غير أنَّهم لم يأخذوا بأحسن ما ذكّروا به، ومن هنا فالنّدم لن ينفعهم، بل الفرصة كانت بين أيديهم وقد ضيَّعوها. قال تعالى: {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[8]، أي مع أنَّ الله تعالى حريصٌ على عباده، فإنَّ بعض العباد ليسوا بحريصين على أنفسهم، أي إنَّ الله يضرب لعباده الامثال ليلفتهم إلى ما يمكن أن يقتدوا به؛ حتى لا يجري عليهم ما جرى مع الذين سبقوهم عبر الزَّمن واحقابه، ومع ذلك لا يتعظون ولا يعتبرون، ومن هنا تولد العلّة من بعد العلّة علَّة؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[9]؛ فقوله (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) يحمل مفهوم إعطاء الفرصة من بعد الفرصة، ذلك فمن لم

---

[7] فاطر 37.

[8] إبراهيم 25.

[9] القصص 43.

يستجب للفرصة الأولى لعله يستجيب للفرص التي ستمنح من بعدها ولا قنوط؛ ومن هنا فإنَّ الغاية العظمى من وراء التذكير هي الهداية إلى الحقِّ بالحقِّ: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[10].

وعليه فإنَّ التذكُّر نعمة عقليَّة أنعم الله بها على عباده؛ كونها تمكِّن الإنسان من المعرفة من خلال الوقوف على الشَّواهد (شاهدة شاهدة)، ومع ذلك هناك من لا يأخذ بالشواهد: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[11].

التذكير: هو الفعل المستدعى من طرف الآخر؛ ليلفت به انتباه الغير، فعندما لا يكون في مقدور الإنسان أن يتذكّر الحقّ أو ما يجب، يصبح في حاجة لمن يذكّره بالحق الذي يسنده سندًا، والذي من بعده يجب أن يترك له حريّة الاختيار؛ إذ لا إكراه ولا إجبار مصداقًا لقوله تعالى (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، أي إنَّه لا سلطان للنبي محمَّد على النَّاس إلَّا التذكير؛ ولهذا قال (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) أي ليس لك غير ذلك؛ إذ لا إكراه في الدين؛ ومن هنا جاء التذكير مهمّة من مهام محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، وهذه من سماحة وبها الدّين الإسلامي الذي أظهر فعل السيطرة الذي لا يكون إلَّا بيد الله وأمره، أي ليس بيد أحدٍ حتى وإن كان نبيًّا؛ ولهذا فمن يحاول أن يسيطر أو يكره البعض

[10] القصص 51.

[11] الزمر 27.

بأيّ علَّة فإنَّ الدِّين الإسلام (كلام الله) يرفضه؛ قال تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}[12]؛ ومع أنَّ الله يعلم بما يقول أهل الباطل من أقاويل باطلة؛ فإنَّه لا يقرّ الاجبار والإكراه، بل استبدل ذلك معاملة حسنة بين النَّاس بقوله (فذكِّر) أي: ليس من مسئوليتك يا محمَّد ولا من مسئوليّة من اتبعك هداية النَّاس بالإكراه والاجبار، بل من مهمتك ومهمّة من اتبعك التذكير بالحقّ، وأترك الأمر أنت ومن تبعك بين النَّاس رغبة وإرادة؛ فذلك هو الدِّين الحقّ.

ومن هنا فالتذكير الحسن فعله حسن يحبُّه الله وعباده: {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى}[13]، أي: فذكِّر يا محمَّد لأنَّ الذكرى لا بدَّ وأن تنفع إلَّا من لم يرتض ذلك، أي إلَّا إذا رفض المذَّكَّر قبول ما ينفع؛ ولذا يترك الأمر له اختيارًا.

[12] ق 45.

[13] الأعلى 9، 10.

التفكُّرُ

التفكُّر مقدرة عقليَّة وكأنَّه حلقة وسط يربط الماضي بالحاضر والمستقبل، ولذا نجد التذكّر يتصل بالماضي وفقًا لأحداث وقد حدثت؛ وذلك بغاية الاتعاظ وأخذ العبر، وفي المقابل في الوقت الحاضر يتم التفكُّر في الزّمنين بغاية صُنع المستقبل المأمول ونيله.

ولذا يعد التفكُّر درجة من درجات الادراك العقلي للمراجعة بغاية المستقبل المأمول (استثارة العقل من الحاضر إلى الماضي بغاية التخطيط للمستقبل)

والتفكّر لا يكون إلّا في قضية أو موضوع أو مشكلة محيّرة، وهو من أعمال العقل وعمليَّات الذّهن، وهو يُمكّن من المعرفة والدراية (ملاحقة المعلومة أو الفكرة) وإدراكها أينما كانت بحثًا أو تفكيرًا بهدف التخلّص من الحيرة المقلقة؛ فالتفكّر كونه يمكّن من إدراك الشيء قبل فوات أوانه، يعدّ حيويَّة العقل ونشاطه توجيهًا إراديًّا، وهو لا يقتصر على التفكّر في المتوفّر من المعلومات أو المتوفّر بذاته للمشاهدة، بل يمتدّ في دائرة الممكن إلى معرفة المزيد المضاف والمبدع.

ولأنّه التفكّر؛ فهو يلاحق كلّ ما يقع في الزّمن، وغايته معرفة طبيعة المتعرّف عليه، والاستفادة منه حاضرًا ومستقبلًا، أمّا غايته فهي: التجويد وإحداث النُّقلة وصُنع المستقبل، ونيل المأمول أو الفوز به.

ولهذا فالتفكّر تشغيل العقل وتوجيهه تفكيرًا فيما يجب أن يكون غايةً وأملًا، فإنْ كان المأمول مرتبطاً بماضٍ فتشغيل العقل تفكّرًا يقود إليه، مثل: أبونا آدم عليه السّلام الذي في زمانه أصبح يفكّر في العودة إلى تلك الجنّة التي افتقدها بعد أن أهبط به والأرض إلى الحياة الدَّنيا. أمّا بالنسبة لبنيه من بعده فالتفكّر يربطهم بالمستقبل المأمول، ولأجل ذلك وجب الاتعاظ حتى لا يتمّ الإغفال عن التفكّر في المستقبل: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[14]، فإنْ تذكر بنو آدم تلك الآلام التي حدثت بعلل التفكير اتعظوا، ومن ثمّ ليس لهم بدّ إلّا التفكّر فيما يجب أن يصنع لهم مأمولًا ومستقبلًا عظيمًا. أمّا التفكّر في المجرّد فدائمًا ينقل المفكّرين إلى ما يمكّنهم من المعرفة المضافة كما يمكّنهم من إحداث النُّقلة.

ويرتبط التفكّر بالمستقبل المأمول وهو يمثل الامتداد الطبيعي للحياة من ماضيها وحاضرها، وله أهميَّة كبرى في البناء المرتقب الذي يكون من ورائه امتدادات مختلفة تتّجه بحسب الاستراتيجيَّة التي وضعت له اللبنات الأولى، فالمستقبل يعدّ الأرضيَّة الجديدة التي يُؤسّس من خلالها كلّ ما هو مطلوب ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع؛ وبذلك يكون التفكّر عنصرًا مهمًّا في خلق مستقبل موافق لكلّ التوجهات التي تسعى إلى المضي قدمًا نحو التفاضل والوصول إلى الدّرجة التي تكون إخافتها حاصلة، ودون وجود مخيف يمكن أن يماثلها أو أن يكون ندًّا لها.

[14] الأعراف 176.

ولا يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة للتأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مسهمة وفاعلة في المستقبل؛ فالمستقبل لا يمكن بناؤه دون النّظر إلى امتداداته الحاصلة التي يكون الانطلاق منها حاصلًا في كلّ التوجهات، وتكون التوجهات المختلفة منتمية إلى جذور تمدّها بما يسمح لها بالسّعي إلى إيجاد حلول واضحة المعالم، فلا يكون هنا أيِّ انكفاء، بل تكون الأمور عامّة سائرة نحو تشابك منظم يكون من ورائه وجود تبعات تبحث لها عن رؤى تفاعليَّة تثري التفكّر وتمنحه أبعادًا مختلفةً ومهمةً، وهنا يكون الإيضاح سمة مطلوبة؛ كي يكون الاتساع المرافق ملبّيًا للإدراكات الحاصلة، فتحصل بذلك شموليَّة مطلوبة تطرح التواصل الذي يكون من ورائه تحقّق التفكّر[15].

ولذا علينا أن نميّز بين مفهومي (يتفكَّرون، ويفكّرون)؛ قال تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ}[16]؛ قال يتفكّرون ولم يقل يفكّرون؛ ذلك لأنَّ قوله (يتفكّرون) يرسّخ بدون شكّ مفهومًا واضحًا ودالًا على اسبقيّة خلق السّماوات والأرض وجودًا خَلقيًّا، ولأنَّها آياتٌ شاهدةٌ فهم في خلقها يتفكّرون، أي: يتفكّرون في كيفيّة خلقها آيات معجزات وسابقة على وجود العقل المدرك

[15] عقيل حسين عقيل، من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 89 . 96، 2018م.

[16] آل عمران 191.

لها يقينًا معجزًا، ذلك العقل الذي كلّما أدركها سلّم اعترافًا بالمستحيل الذي لا يكون إلَّا بيد الخالق الأعظم جلَّ جلاله.

أمَّا لو قال: (ويفكِّرون) فهنا يصبح الأمر متعلّقًا بما يجب أن يكون، وليس بما هو كائن وهو المرسّخ بقوله (ويتفكّرون). أي إنَّ مفهوم القول (يفكّرون) يتضمّن في معناه التردّد وكأنَّ السّماوات والأرض ليست بشاهدة أمام المدركات الحسيَّة؛ ولذا فقوله يتفكّرون يستند على الحجّة الماثلة أمام المشاهدة والملاحظة، أمَّا القول يفكّرون يشير إلى أنَّ الحجّة قد لا تكون بين الأبصار أو أنَّها غائبة، ولهذا فهم في حاجة ولو لبرهة من الزَّمن ليفكّروا في الأمر؛ ولذلك فالذين تفكّروا في خلق السماوات والأرض اعترفوا بالحقّ المنزَّل حُجّةً وبرهانًا (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ). وقال تعالى: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ}[17] تتعلّق هذه الآية بقصّة الوليد بن المغيرة والد خالد بين الوليد (سيف الله المسلول) الذي لما سمع من القرآن ما سمعه من الرّسول استشعر في نفسه أنَّه الحقّ، ومع أنَّه قال: إنَّه الحقّ فإنَّ قومه ضغطوا عليه وعلى رأسهم أبو لهب، بأنْ ينكر اعترافه بالحقِّ، أي إنَّه فكّر بين أمرين: الإيمان أو الكفر؛ ولذا فهو بين أمر الاعتراف بالحقِّ، وبين ترضيّة قومه كفرًا؛ ومن ثمَّ فقد كفر بالحقِّ، أي إنَّه على الرّغم من تفكيره استكبر على الحقِّ ومال إلى تقدير قومه، أي: بدل أن يُقدِّر كلام الله وقوله؛ قدّر القول الذي من دونه؛ ومن هنا فإنَّ التفكّر

[17] المدثر 18.

الذي يؤدِّي إلى عدم الاعتراف بالحقيقة وإنكار الحق لا يعد تبدّرٍ؛ ذلك أنَّ التفكُّرَ يعني:

. حُسن التفكير.

. حُسن الاختيار.

. حُسن القرار.

. حُسن الحكمة.

. حُسن الدِّراية.

. حُسن القول.

. حُسن الحُجَّة.

. حُسن البرهان.

. حُسن الاستنارة.

. حُسن الدِّر اية.

. حُسن التخطيط.

. حُسن الفعل.

. حُسن العمل.

. حُسن السُّلوك.

وعليه:

مع أنَّ المستقبل لا يكون إلَّا في الزّمن الآتي بعد كلِّ قول أو فعل أو عمل، فإنَّ صُنعه لا يكون إلَّا في الوقت الآن؛ ولذا فصُنَّاع النُّقلة من الوقت الآن إلى المستقبل يعملون ليلًا نهارًا من أجل تحقيقها عملًا به تتغير الأحوال من مستوياتها الدنيا إلى المستويات المأمولة رفعة.

ومن هنا فصُنع المستقبل تَفكير وتخطيط وعمل مُضني بغاية إحداث النُّقلة إلى الأفضل والأجود مما عليه الإنسان في زمنه الحاضر إلى مستقبلٍ يأمله وهو الأرفع مما هو عليه من أحوال علميَّة وسياسيّة واقتصاديَّة ونفسيَّة وأخلاقيَّة، ولأنَّ نيل التقدير والاعتراف يحقّق النُّقلة النّوعيّة، فهو الممكِّن من تجاوز المستويات القيميّة الثلاثة (الذاتيّة والانسحابيّة والأنانيّة) والامتداد إلى المستوى القيمي التطلّعي والمستوى القيمي الموضوعي، اللذين يعتمد فيهما الإنسان على المنطق والعقل حُجّة في الحوار، وحجّة في استقراء واستنباط الأمور المتعلّقة بالعلائق الاجتماعيَّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسيّة والذوقيّة والثقافيّة، كما يعتمد على التعليم والتعلّم استطلاعًا لإحداث نُقلة عظيمة تغيّر الأحوال إلى أحوال مملوءة منفعة وطمأنينة مع وافر الرّضا.

ولهذا فالقاعدة هي:

. العمل على تحقيق النُّقلة.

والاستثناء هو:

- البقاء على حالة من التخلّف.

ولذا فحسن التفكُّر والاعتراف بما يُبذل من جهودٍ حسنٍ، يؤدّي إلى تحقيق الطمأنينة النفسيّة والرّضا النفسي ويغرس الثّقة، التي تمدّ الإنسان بالمزيد من العطاء الموجب، وتمدّه بقوّة الالتزام الأخلاقي الذي يحسّس الآخرين بأهميّة العمل على رد الجميل أو الفضل بما هو أجمل وأفضل منه.

ولأنَّ التقدير قيمة رفيعة وكذلك الاعتراف قيمة رفيعة بين النَّاس الذين يميّزون بين ما يجب وما لا يجب، فإنّ نيل كلّ منهما مبدأ أخلاقي وإنساني، وهنا يقول فرنسيس فوكو ياما: إنَّ الرَّغبة في الاعتراف والتقدير المحركان للتاريخ هما الحلقة المفقودة بين الاقتصاد الليبرالي والسياسة الليبراليّة، وكذلك يؤكد هيجل كيف أنَّ رغبة الإنسان في سبيل نيل الاعتراف والتقدير قد زجت به في فجر التَّاريخ في معركة دمويَّة من أجل المنزلة والمكانة الرفيعة.

ولأنّ حُسن التدبُّر وحُسن التفكُّر والتقدير والاعتراف تمكِّن من إحداث النُّقلة النوعيّة؛ لذا فإنّ النُّقلة تحقّق التميّز والمكانة الرّفيعة والمنزلة العالية عند من يبادلك الاعتراف، أو ينتظر أن تقدّمه له قيمة؛ فالعبد على سبيل المثال: في الوقت الذي يقبل فيه بالعبوديّة، يأمل أن يكون سيّده راضيًا عنه؛ ولهذا يكدّ ويجدّ ويتحمّل التّعب من أجل شيء مهم جدًّا هو نيل التقدير والاعتراف من سيده، بأنَّه عبدٌ مخلصٌ ومطيعٌ

ومهذبٌ؛ ولذا فهو لا ينبسط إلا بانبساط سيّده منه، وهكذا حال المتعلّمين الذين يتنافسون على أخذ الصّدارة والفوز بها، تراهم يبذلون الجهود المثمرة (المحقّقة للفوز) من أجل أن ينالوا الاعتراف والتقدير من والديهما، ومن ذوي العلاقة بهم، ومن محيطهم الاجتماعي والإنساني وإلّا لماذا يبدلون المزيد من الجهد، وأيضا هكذا حال من يقول الحقّ، ويعدل إذا حُكّم، وحال من يعمل ويزرع ويصنع ويتصوّف أو يتعبد بموضوعية، أو يدخل المنافسات في المناشط المتعدّدة (الرياضيّة والفنيّة والثقافيّة والعلميّة والجماليّة) فهؤلاء جميعهم يسعون لنيل الاعتراف والتقدير من الآخرين الذين هم في محيطهم البيئي؛ إذ لا نُقلة بدون اعتراف وتقدير لما يجب ولمن يجب.

أمَّا الذين يعانون من حالات انسحابيّة فأمرهم غير ذلك؛ فهم يحتاجون إلى دراسة حالاتهم وتحديد مستوياتهم القيمّية التي هم عليها، ثمّ إعادتهم لِما يجب، ثمّ بعد ذلك نقلهم إلى ما يُسهم في تحقيق المستقبل الأفضل والأجود الذي يحقّق لهم النُّقلة.

وعليه:

- كُن حسن التفكّر؛ لتكون أكثر استنارة.
- كُن حسن التفكّر؛ لتصبح أكثر دراية.
- كُن حَسن التدبُّر؛ لتعرف ما لك وما عليك.

. تجاوز بحسن تدبّرك الوقوف عند التنظير.

. استعد للعمل عن حُسن تدبُّر.

. تهيأ للعمل عن حُسن تفكّر.

. تأهَّب للعمل عن حُسن تفكير.

. أقدم على العمل والمأمول نصب عينيك.

. أقبل بتحدِّي الصّعاب فإنَّها لا تستطيع الصُّمود أمام المتحدين لها.

. كن إيجابيًّا لتنل التقدير.

. كن متفهِّما لتحدث النُّقلة.

. اعترف بالآخرين يتمّ الاعتراف بك.

. قدّر الآخرين تنل التقدير منهم.

. ثق أنَّ الاعتراف يحقق قيمة التقبُّل.

. ثق أنَّ الجحود مفسدة.

. ثق أنَّ مبادلة قيمة الاعتراف تبادل قيمة التقدير.

. استوعب الغير يستوعبك.

. ثق أنَّك لن تحدث النُّقلة بدون جهود تعاضدك.

. ثق أنَّك قادر على كسر القيد فلا تتأخر عن كسره.

. تأكّد أنَّ القيد قد كُسر؛ حتى لا تقع في فخّه أكثر من مرّة.

. ثق أنَّ صُنع المستقبل لا يكون إلَّا في الوقت الحاضر.

. ثق أنَّ زمن الحيرة تدبُّرًا لا يصمد أمام الصَّامدين فاصمد حتى وإن شعرت بضيق.

. ثق أنَّك بالاعتراف والتقدير تنال الاحترام وتُزال من أمامك المعوقات.

وعليه ينبغي على المسئولين أنْ لا يغفلوا عن:

. حُسن التدبُّر وفقًا للإمكانات يُمكّن من إنجاز الأهداف.

. حُسن التفكّر يُمكّن من بلوغ الغايات ونيل المأمولات.

. تفعيل منطق (النّحن) بين أفراد المجتمع وجماعات التعلّم والعمل والجماعات الممارسة للمناشط المتنوّعة، والجماعات الممارسة للسياسة والاقتصاد، والذين يشتركون في رسم الخطط والإستراتيجيّات لمجتمعاتهم أو دولهم أو لوضع رؤية مع الغير.

. تمكين أفراد المجتمع من تكوين إحساس عام مشترك، مفاده أنَّهم مفردات أساسيّة في الدّولة، ولهم حقوق يجب أن تمارسها، وواجبات

ينبغي أن تؤدّى، ومسئوليَّات ينبغي أن تُحمل؛ حتى يصبح منطق الجميع: (نحن معًا) من أجل إحداث النُّقلة للجميع.

. التركيز على القيم الاجتماعيَّة التي تستوعب الأفراد والجماعات دون استثناء، مع تفطين الأفراد بأهميّة هذه القيم الاستيعابيَّة، وحثهم على احترامها وتقديرها والوقوف عندها والابتعاد عمّا يُبعدهم عنها؛ فهذا الأمر يجعلهم تحت مظلة الاحتضان الاجتماعي الذي يمدّهم بالدّفء والطمأنينة.

. حث أفراد المجتمع وجماعاته وفئاته على استيعاب بعضهم لبعض، وتقبُّلهم كما هم يُمكِّن من تكوين علائق قيميَّة ذات أبعاد أخلاقيّة وأبعاد إنسانيّة جليلة.

. ضع خطط وبرامج لتحقيق الألفة والمحبّة والموائمة الاجتماعيَّة والإنسانيَّة بين العاملين والمتعلمين، وبين أفراد الأسر والممارسين للمناشط المتعددة، وبين أصحاب الحضارات وأصحاب الأديان المتعدّدة، وبين أصحاب الحاجات المنقوصة والحاجات المشبعة؛ ذلك لأنَّ الرّب واحد والدّين واحد، والنُّقلة العظيمة لا تكون إلَّا بالجميع ومن أجل الجميع.

. دفع الأفراد تجاه الأفعال الاستيعابيَّة التي تُسهم في زيادة قوّتهم قوّة بغاية إحداث النُّقلة رفعة إنسانيَّة.

. المواءمة بين مطالب الأفراد وحاجاتهم، ومصادر الإشباع المتاحة في بيئتهم الاجتماعيَّة.

. التحريض على ممارسة أساليب الدّيمقراطيّة بما يحقّق المعاملة الحسنة بين الذين تربطهم علائق قيميَّة أو بين الذين تربطهم مصالح ومنافع مؤقّتة.

. غرس قيم الشفافيَّة واتباع أساليبها بين المتعلمين والممارسين لحقوقهم والمؤدّين لواجباتهم والحاملين لمسئوليَّاتهم.

. تفطين أفراد الأسرة من غفلتهم عن متطلبات المراحل العمريَّة للأبناء وأثر المتغيرات التي تحيطهم في البيئة الاجتماعيَّة أو في القرية الصغيرة؛ حتى يتمّ الاستيعاب الموضعي وتقدير الحاجات المتطوّرة عبر الزّمن، والعمل على إشباعها ونقلهم مما هم عليه إلى ما يجب أن يكونوا عليه نُقلة.

. دفع الأفراد للتعامل بأسلوب ديمقراطي مع بعضهم بعض، ومع الآخرين في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر سواء أكان هذا الأمر علائق أسريّة، أم علائق جيرة، أم عمل، أم سياسة داخليَّة أو خارجيَّة، أم أمر سلم، أم حرب، أو أيّ أمر من أمورهم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة.

. تفطين المجتمعات والفئات الاجتماعيَّة إلى أهميّة الاستيعاب في تبادل المعارف والعلوم والمكاسب التي تنمو بالجهود المشتركة والتعاون والاستيعاب المتبادل.

. مشاركة الأفراد والجماعات في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر دون إنابة عنهم في أمر من أمورهم التي يقدرون على القيام بها أو أدائها، ولا داعي للأحكام المسبقة التي تقول: (أنّهم لن يكونوا قادرين)؛ ولذا فلا إمكانيَّة لتحقيق النُّقلة ما لم يتمكن الجميع من المشاركة البناءة.

. التأكيد على أهميَّة ممارسة الديمقراطيّة بشفافيّة، يزيل الشّكوك التي تظهر بين الحين والحين بين أفراد المجتمع أو جماعته، ويطوي الهوة بينهم إلى أن يجعلهم يدا واحدة في مغالبة الصّعاب وصُنع المستقبل المأمول نُقلة.

. التأكيد على أهميَّة الاستيعاب في تنمية رأس المال الاجتماعي وتحقيق الوحدة الوطنيّة رفعة.

. ترشيد الأفراد والجماعات على التمسّك بقيمة الاستيعاب؛ حتى يتمكّنوا من تحقيق مجتمع القوّة الممكن من إحداث التغيير وبلوغ النُّقلة علمًا ومعرفةً ودرايةً.

. تفعيل المشاركة والتعاون بما يؤكّد أهميَّة كلّ فرد من أفراد المجتمع بالنسبة للآخر وحاجته إليه.

. التخطيط إلى كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى توزيع المسئوليّات حسب الاختصاصات والأدوار والصّلاحيّات قانونًا ودستورًا؛ لأجل تفعيل مبررات الاستيعاب المثمر.

. المشاركة في المؤتمرات العلميّة والسياسيّة والاقتصاديّة، للتعرّف على المتغيرات المستحدثة، التي تؤدّي إلى نتائج موجبة في العلائق الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، والإفادة منها في وضع البرامج وإعداد الخطط ورسم الإستراتيجيّات التي تحقق النُّقلة ورفعة الشأن للفرد والجماعة والمجتمع، بل وللإنسانية جمعاء مع وافر المحبَّة.

. تشجيع أفراد المجتمع على إقامة صداقات خارج حدود الوطن من خلال شبكات المعلومات الدّوليّة؛ تحقيقًا للتواصل مع الآخر واستيعابه بما يحقّق التقارب وتبادل المنافع المشتركة.

. ترسيخ لغة ومفهوم (النحن)، حتى لا تسري الشخصانيّة والأنانيّة في سلوك وأفعال بني الوطن؛ ذاك لأنَّ كلمتي (أنا) و(أنت) تسمح بمسافة امتداد فراغي لتجذب مشاعر الخوف إليها، ومن ثمَّ فكلّما زاد تمسُّك الأنا بأناته اندفع (الأنت) لإعادة حساباته، وهذه تزيد من الظّنون وتقلل من الثّقة، التي ينبغي أن تسود بين بني الوطن؛ ولهذا وجب سيادة (أنا) الفرد ينبغي أن أسود بكرامتي، وأنا الحريّة ينبغي أن أعم النّاس، وأنا الشفافيَّة ينبغي أن أكون في السّلوك والفعل، وأنا الوطن يجب أن أكون خالصًا لأهلي، وأنا الأبوّة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي أن يُحرم أحد من مشاعري وانتمائي، وأنا دين الله الذي كُرِّمت به الآدميّة، وأنا المنطق الذي يجب أن أسود بينكم حجّة إذا أردتم التفاهم والتواصل وتبادل الاحترام، وإذا أردتم الاعتراف والتقدير، وأنا النّاس كلّ النّاس

الذين لهم حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسئوليَّات تُحمْل، وأنا كلمة حقّ لا بدّ أن أقال، وأنت الباطل لا بد أن تُزال، وأنت العبد يجب أن تتحرّر، وأنت الاستعمار يجب أن ترحل، وأنت القيد يجب أن تُفك بإرادة أو تُكسر بالقوّة، وأنا صاحب السُّلطة ومالك الثروة، وأنت الذي استولى عليهما بغير حقّ؛ فأرحل خير لك من أن ترّحل؛ ولذا فأنت لم تكن أنا فلماذا لا تفهم؟ وفي المقابل نحن معًا نحدث النُّقلة.

من هنا تتَّضح قيم (النّحن) الاستيعابيّة، التي تُمكِّن الأفراد من حُسن التدبُّر والالتقاء على الحُجَّة والتفاهم والاحتكام، لا على التعصّب بلا حُجَّة ولا برهان.

وعليه:

- استوعب النَّاس يتم استيعابك.
- اعترف بحقوق النَّاس يتمّ الاعتراف بحقوقك.
- قدّر النَّاس تنل التقدير منهم.
- عامل النَّاس بشفافيَّة تُعامل بها.
- عامل النَّاس بمرونة يمدوك بالاحترام.
- اعتمد المنطق حُجّة حتى يصبح قاسم مشتركًا.
- تفهَّم ظروف النَّاس يتم تفهّم ظروفك.

. التفت للنَّاس يلتفتون إليك، وفي المقابل إن أعطيتهم بظهرك فلن تجد إلّا ظهورهم في وجهك.

ولأنَّ التمسّك بالمنطق تمسّكٌ بالقواسم المشتركة. إذن فالتمسّك بالقواسم المشتركة (قاعدة)، والتخلّي عنها (استثناء).

ومن هنا ينبغي العمل على تفطين أفراد المجتمع إلى أهميّة حُسن التدبُّر والتمسّك بالقواسم المشتركة؛ حتى يتوحّد الجميع على منطق (نحن)، الذي لا يقبل التفرقة والتجزئة والإقصاء والتهميش.

ولهذا من أجل حُسن التدبُّر وإحداث النُّقلة ينبغي أن تتمركز قواعد المنطق على الآتي:

. الحُجَّة إقناع واقتناع.

. البرهان دليل إثبات موضوعي.

. التقريب القيمي بالقواسم المشتركة.

. الاستيعاب بإعطاء الهامش.

. التوافق تمركز على عناصر القوّة.

. التفرّق تمركز على عناصر الضّعف.

. التقبّل رضا إرادي.

. الاعتراف إقرار بالفضيلة.

. الاعتبار إعطاء مكانة للآخر.

. التقدير معياري النجاح.

. التواصل استمراريّة علائقيّة.

. الشفافيّة وضوح في القول والفعل والعمل والسُّلوك.

. الأخذ بما يجب يمكّن من إحقاق الحقّ.

. إحقاق الحقّ يمكّن من إحداث النُّقلة.

. إحداث النُّقلة يمكن من بلوغ المأمول ونيله.

وعليه:

إنَّ حُسن التفكّر وتفعيل العلائق الاجتماعيَّة والإنسانيّة يؤدّيان إلى التطلُّع والقّوة والنّمو ويحدثان النُّقلة؛ أمّا إهمالهما فيؤدّي إلى التراجع والانسحاب والضّعف الذي لا يؤدّي إلّا إلى الخسارة والانهزام.

ولذا فالتمسّك بحجّة المنطق يستوجب سيادة التفهُّم بين أطراف الحوار الذي به يتم تقدير الظّروف الاجتماعيَّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسيّة والذوقيّة والثقافيّة، فهذه الظروف من طبيعتها لا تتساوى بين الأفراد؛ حيث الفروق الفرديَّة، والفروق في الإمكانات المتاحة.

ولأنَّ المنطق يستند على الحُجَّة والبرهان وفقًا لمعطيات أو مسلّمات تتضمّن حقائق ودلائل وإثباتات موضوعيَّة؛ فإنَّ اعتماد المنطق والحُجَّة

بين الأطراف المشتركة في وحدة الموضوع يُعد تمسكًا بالقواسم المشتركة بين الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات التي ينبغي دفعها إلى صُنع المستقبل بنُقلة بها تتغير الأحوال إلى ما يفيد وينفع ويعظم المكانة ويرسخ السيادة الوطنيَّة.

مستوياتُ التفكُّر

مع أنَّ التفكّر مقدرة عقليَّة تُمكِّن الإنسان من التفحُّص والتبيُّن، فإنَّ التفكّر لا يكون إلَّا في دائرة الممكن، ومع أنَّه في دائرة الممكن، فإنَّ دائرة الممكن تمكّن العقل من معرفة المستحيل إلى أن يقف العاقل أمامه عاجزًا، مما يدعوه إلى الاعتراف به حقيقة، ومع ذلك فهناك من يقف على الحقيقة وينكرها كفرًا.

وهكذا بالنّسبة إلى دائرة الممكن فإنَّها أمام المعجز تقف عاجزة (العقل يقف أمام المعجز عاجزًا)؛ ولذا فإنَّ أمر المعجز لا يكون إلَّا على أيدي الرُّسُل الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام.

أمَّا دائرة الممكن في ذاتها فكلّ شيء ممكنًا، سواء أكان متوقّعًا أم غير متوقَّعٍ، أي سواء أكان ميسَّرٌ مذللٌ، أم أنَّه صعبٌ، أم أنَّه خارقةٌ من الخوارقِ، ولتبيان ذلك أعرض مع وافر التفحّص كل من المستحيل، والمعجز، والممكن؛ إذ لكلٍّ خصوصيَّة بها يتميَّز دلالة ومفهوم ومنعى.

التفكُّر في المستحيل:

المستحيل لا يكون إلَّا بيد الله، وأمره أعظم من الأمر المعجز، الذي هو الآخر لا يكون إلَّا من عند الله، ولهذا فالمستحيل متجاوز لتلك المعجزات التي أُنزلت وحيًا ونبأً ورسالات على الأنبياء والرُّسُل الكرام، أي إنَّ المستحيل نعلمه وبه نؤمن ونسلّم بالمطلق، أمَّا المعجز فيعلمه الأنبياء أوَّلًا ثم من بعدهم العقول تعلمه وبه تؤمن أو تكفر؛ إذ لا إكراه

في الدِّين؛ ومِن هنا نعلم أنَّ أمر المستحيل لا يكون إلَّا بيد الله تعالى، وأنَّ الأمر المعجز هو الآخر لا يكون إلَّا بأمر الله، مع أنَّه ينزّلُ على أيدي الأنبياء والرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وأيضًا فإنَّ الأمر في دائرة الممكن لا يكون إلَّا بأمر الخالق مع أنَّه بيد المخلوق بين متوقّعٍ وغير متوقّع.

وعليه فإنَّ العمل المستحيل، والفعل المستحيل، والأمر المستحيل بيد الله تعالى، وأنَّ العمل المعجز والفعل المعجز والأمر المعجز فقد أمدّ الله به الأنبياء وحيًا ونبأً ورسالات معجزات، أمَّا العمل الممكن والفعل الممكن والأمر الممكن فقد أمدَّ الله به المخلوق خَلقًا معجزًا.

ومن ثمَّ فإنَّ التفكُّر في الأمر المستحيل هو التفكُّر في ما ليس بيد البشر؛ كونه غير ممكن الحدوث على أيديهم؛ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانيَّة لبلوغه، ولكن لو لم يكن ما كنّا، ولأنَّه كائن؛ فلا إمكانيَّة لتجاوزه، ولا إمكانيَّة للقفز عليه وكأنَّه لا وجود. إنَّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) والممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه، وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالتفكُّر في المستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانيَّة، وهو ليس بالصّعب؛ فالصّعب يمكن بلوغه في دائرة الممكن غير المتوقَّع، أمَّا المستحيل فلا إمكانيَّة؛ حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

والمستحيل لا يُوجِدُ نفسه ولا يخلقها، بل لا بدّ من خالق من ورائه، إنَّه القوَّة التي لا تكون إلّا بيد القوي، الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره،

ومع ذلك فالمستحيل أمر في ذاته، حيث يقف المخلوق عند حدّ لا يدرك من بعده شيء سوى الوجود الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي جعله وجودًا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوَّة المطلقة ما كان المستحيل فعلًا مستحيلًا.

فالكون لو لم يكن عملًا مستحيلًا ما كان انفجاره أو فتقه عظيمًا، ومع أنَّ المستحيل شيءٌ يتحقّق، فإنَّه لا يوصف بشيء، أي: لو لم يكن المستحيل شيئًا ما تحدّثنا عنه، ولأنَّه شيء ونتحدث عنه؛ فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن ورائه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

ومن هنا افترق البعض القليل من النّاس مع البعض العظيم؛ فالقليل منهم وقف عند معجزة المستحيل في ذاته، أمَّا معظم النَّاس؛ فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلًا لا يخترق.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوَّة فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملًا قابلًا للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين؛ فَلِمَ لا نقف أكثر عجزًا أمام الفعّال له؟

فعلماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعًا، وهم عاجزون عن إيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنَّهم عاجزون

عن معرفة نقط صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها؛ ومع ذلك يرى البعض أنَّ الكون يتمدّد متسارعًا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعًا، أي: لا إله من ورائه، وكأنَّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنَّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع ويقفه عند حدّه، أو يكون سببًا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق وأن فُتقت؛ لتعود إلى حالتها الطبيعيَّة التي خُلقت عليها عوضًا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقًا.

وبما أنَّ الفزيائيون واثقون من نهاية الكون؛ فالسُّؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ ثمّ كيف وضع الكون لنفسه حدًّا وهو لم يصل إليه بعد؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصيَّة ليس بحكم علميٍّ، بل مجرّد آراء لا تتعدّى نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات، حتى ظنوا أنَّها الخالق؛ وهم بهذه النظرة، كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق. ولكن وفقًا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ

المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين تفكُّرًا إلى التّسليم.

ومثلما يكون وراء كلّ شيء أمرٌ ولا يكون إلَّا خاضعًا لأمره كما هو حال بني آدم الذين هم من نطفة، وآدم من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيلٌ لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع أنَّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق آية من بعد آية، كما هو حال خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمَّا المستحيل كذات؛ فلا يتجسّد في شيء يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازًا؛ حيث لا شكّ في وجوده، والمستحيلات تتحقّق بين أيدي النَّاس في كلّ جزئية من الزّمان والوقت ولا أحد يستطيع إيقافها أو الحدّ منها؛ ولذا فمعرفة المستحيل وتذكُّره يمكنان من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلًا.

فالكون الذي قالوا عنه: خُلق من لا شيء ولا خالق من ورائه؛ فبقولهم هذا يعترفون بوجوده، والخالق من ورائه، وإلّا لماذا قالوا: (خُلق من لا شيء) فكلمة (خُلق) تعيد أمر الخلق للخالق، وليس للشيء المشار إليه بأنَّه قد خُلق من لا شيء.

ولأنَّ وجودَ الكون شيءٌ مستحيلٌ؛ فلا شكّ أن من ورائه ما هو أعظم استحالة، وهنا يكمن القصور بين إدراك المستحيل الأوَّل: (الخالق)

وما يراه المستحيل اللاحق (الإنسان) الذي خُلق مستحيلًا؛ فالإنسان مع أنَّه خُلق مستحيلًا، فإنَّه لا يخلق المستحيل؛ ولهذا فالقاعدة:

(من يَخلق المستحيل لا يُخلق).

ولأنَّ من يَخْلق المستحيل لا يُخلق، والكون خَلقٌ مستحيلٌ؛ إذن فالمستحيل (الكون) يُخلق وخالقه لا يُخلق؛ ولهذا كان خلق الكون مستحيلًا مثله مثل أيّ مستحيل.

والقاعدة الخلقية تقول:

(المستحيل قوَّة تَخرق ولا تُخرق).

ولأنَّ المستحيل قوَّة اختراق لكلّ قوَّة وإن اجتمعت، فقوَّة الكون تمدّدًا وتسارعًا ستقف وتنتهي انكماشًا أو انفجارًا عظيمًا، أو رتقًا أعظم، وهذا يدلّ على وجود مسيّرٍ للمستحيل، وموقفٍ له، أو مفجّرٍ، أو راتقٍ له؛ إذ لا استحالة أمام الفعل المستحيل.

ومن ثمّ فالتوقّف عند المستحيل عن وعي يمكّن من عدم الوقوف عنده نهاية؛ فالمستحيل فعل لا يتحقّق إلّا وفق مشيئة فاعله، وهو الذي ينبغي أن يدرك بمشاهدة وملاحظة مستحيلاته؛ حتى يدرك أنَّ إدراكه مشاهدة وملاحظة هو الاستحالة بعينها؛ ولذلك فالقاعدة الخَلقيّة تقول:

(المصوِّرُ المطلق يرى ولا يُرى).

ومن هنا فلا إمكانيَّة لرؤية المصوِّر المطلق؛ كونه لا يُصوَّر؛ ولهذا فخالق الشيء لا يمكن أن يكون الشيء؛ ذلك لأنَّ الشيء يُخلق والمشيء لا يُخلق.

ولأنَّ المشيء لا يمكن أن يكون شيئًا، إذن: فكيف للكون كونه شيئًا أن يكون مشيئًا لخَلق ذاته؟

هذا ما ارتأه بعض علماء الفيزياء الذين وقفوا على معجزات الخالق المستحيلة وكأنَّها خالقة لنفسها، ومن لا شيء، وفي هذا الشأن وكأنَّهم يقولون: نحن خُلقنا شيئًا من لا شيء في الوقت الذي هم فيه يعلمون أنَّهم قد خُلقوا من ترابٍ، وإلّا كيف يقبلون بخلقهم من تراب وهم يعلمون أنَّ أباهم آدم لم يخلق نفسه، وهو من تراب، أي: بما أنَّ آدم من تراب، ولم يكن ترابًا فمن الذي خلقه آدمَ؟

إنَّ هذه القاعدة تسري بالتّمام على خَلق الكون الذي قالوا عنه: إنَّه من ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة التي لم يقولوا عن خلقها شيئًا، وهي التي لو لم تُخلق ما كانت ذرة، وما انفجرت كونًا عظيمًا كما يدّعون بلا دليل سوى وجود أثرٍ يشير إلى الانفجار، أو يشير إلى ما يشبه الانفجار، في الوقت الذي قال فيه الخالق غير ذلك: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[18].

[18] الأنبياء: 30.

وبناء على هذا القول العظيم تساءلنا:

أيّهما أولى: أن نأخذ بقول الخالق، أم أن نأخذ بقول المخلوق؟ ومع ذلك قبلنا قول المخلوق لنأخذ بقول الخالق.

فالخالق الذي خَلق الكون وكوّر فيه النّجوم والكواكب كما كوّر منه الأرض التي خُلق الإنسان الأوّل من ترابها عندما كانت مرتقة في السّماوات جنّة، قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[19]. فكيف بمن لم يكن سابقًا على قوله تعالى، أن يقول: إنَّ الكون خَلق نفسه؟

وإذا سلّم من سلّم بهذا القول؛ فسيجد نفسه في مواجهة مع خلق نفسه التي لم يخلقها، وبتسليمه هذا ليس له بدّ إلّا الاعتراف بأنَّه لا إمكانيَّة أن يخلق الشيء نفسه، أي: كيف لمن يعرف أنَّه خُلق من نطفة أن يقول شيئًا غيرها؟

ولأنَّ قاعدة الخلق تقول: الشيء يُخلق ولا يَخلق.

إذن: فمن خُلق من نطفة ليس له بدّ إلّا استمداد قاعدة خلقه من شيء: (تراب أو نطفة) ليستقرأ بها خلق الشيء الذي لا يمكن أن يخلق نفسه. إنَّها المسلّمة لمن يدرك أنَّه لم يَخلق نفسه؛ لكونه يدرك خلقه من النطفة التي من قبلها يعلم أنَّها لولا التزاوج ما كانت، وكذلك من قبلها يدرك أنَّ أبويه: (آدم وزوجه) لم يكونا من نطفة، وهنا تكمن العلّة التي

[19] الزّمر: 62.

قفز عنها بعض علماء الفيزياء بقولهم: إنَّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ومع أنَّهم يؤمنون بخلق الأشياء، فإنَّهم عندما وقفوا عند أكبرها: (الكون)، قالوا: إنَّه شيء، ولكنّه خالق، وهذا ما يتعارض مع قواعد الخَلق:

- هيئة الشيء تسبق الشيء وجودًا.
- وراء كلّ شيء مشيئة.
- وراء كلّ مخلوق خالق.
- الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه.

ولذا فالكون لو لم يكن له مكوِّن ما كان كونًا، والخَلقُ لو لم يكن من ورائهم خالق ما خُلقوا، والعلم لو لم يكن من ورائه العالم ما عُلّم: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[20].

وعليه:

فالمستحيل فعل، والفعل لا يشاهد ولا يلاحظ إلّا إذا تجسّد في عملٍ يظهر الهيئة والصّورة؛ ولذلك فالمستحيل طاقة تُمكّن من إيجاد ما لم يسبق وجوده؛ ومن ثمّ فالمستحيل فعل أوجد كونًا متمدّدًا ومتسارعًا في

[20] البقرة: 31.

تمدّده، ثمّ خُلق منه وفيه ما خلق مستحيلًا، وكلّ ما خُلق استحالة، لا يُخلق ممّن لا يتجاوز جهده دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع[21].

ولأنَّ الكون خُلق خَلقًا مستحيلًا، إذن: فلا إمكانيَّة لخلق كون مثله إلّا من الذي خَلقه مستحيلًا، ومن هنا استقرأ علماء الفيزياء والفلك وجود أكوان أخرى خارج كوننا المتمدّد تسارعًا، ومع أنَّهم اكتشفوا معطيات تشير لذلك، فإنَّ ما هو أعظم أنَّ الخالق قد أخبر عنها وضوحًا، ويا ليتهم يطّلعون على الكتاب؛ لعلّهم يرشدون إلى ما هو أعظم علما ومعرفة: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[22]؛ فقوله: (فكيف خلق) هنا يكمن المستحيل؛ حيث لا إمكانيَّة لمعرفة الكيفيَّة التي بها خلقت الأكوان طِباقًا؛ ولأنَّ معرفة (كيف؟) أمرٌ مستحيلٌ؛ فأخبرنا الخالق عن (الكيف) بقوله: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[23]، أي: بعد أن كان الكون ملتحمًا سماوات وأرضين، فُتق مستحيلًا إلى سبع سماوات وسبع أراضين، وبما أنّنا نعلم بفتق الأكوان؛ فَلِمَ لا نبحث حتى نكتشفها مستحيلًا بعد مستحيل.

ولذلك فالأرض لا تَخلق الأرض، والسّماء لا تَخلق السّماء، وعالم الفيزياء لم يلد نفسه ولم يخلقها، وحتى إن خُلق الشبيه بأيّ مفتاح من

---

[21] عقيل حسين عقيل، نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020، 110 – 115.

[22] نوح: 15.

[23] الأنبياء: 30.

مفاتيح العلم؛ فلن يُخلق الشبيه البشري إلّا من خلية حيّة، وحتى أن خلق الشبيه فسيظل شبيها؛ ولذلك فقضية الخلق (الحياة) لن تكون إلّا بيد من بيده أمر الحياة.

ولأنَّ المستحيل لا يمكن أن يُدرك إلّا عندما يصبح شيئًا مفعولًا؛ إذن: فالمستحيل عندما يتجسّد في عملٍ يصبح مفعولًا شكلًا أو صورة أو شيء مشاهدًا وملاحظًا، ولأنَّه المفعول فلا يكون إلّا بفعل الفاعل؛ ولأنَّه بفعل فاعل المستحيل فهو لم يَخلق نفسه، بل من ورائه خالق المستحيل الذي لم تتمكّن عقول بعض الفيزيائيين من التمييز بينه وبين فعله الإعجازي، فعقول البعض تذكّرًا وقفت عند المستحيل وكأنَّه الخالق، وهنا تكمن العلّة المعيقة للبعض من الارتقاء وإحداث النُّقلة.

ولذلك فالكون لو لم يكن مخلوقًا ما كان مستحيلًا، والاستحالة من أجل أن تُدرك ينبغي أن تلاحق وتتابع تذكُّرًا وتفكّرًا استحالة بعد استحالة، وكأنَّها تتدرّج معرفة من الأصعب إلى الصّعب حتى التبيُّن، فخَلق الكون وتسييره أكبر المستحيلات التي تمّ إدراكها عقلًا، ثمّ خَلق المشاهد في ظُلمة، فيها خُلقت الأرض كما خُلقت النّجوم والكواكب والمجرّات، ثمّ خلقت الأزواج من الأرض وهي مرتقة في السّماء، ثمّ من بعدها خُلق التكاثر تزاوجًا؛ فكلّ هذه المخلوقات هي نتاج الفعل المستحيل؛ ولذلك فبمقارنة خلق الأزواج من الأرض وهو الأقرب لعقول البشر، نجد أنَّ الخلق من لا شيء (خلق الكون) يبدو وكأنَّه أصعب من

خلق الأرض، وهكذا خَلق الأرض يبدو وكأنَّه أصعب من خلق آدم وزوجه المخلوقين منها، وكذلك الخلق من التزاوج على الصّعوبة التي لا تقارن لو لم يكن هناك ما هو أعظم خلقًا منه.

ومع أنَّنا ندرك أنَّه لا صعوبة بالنّسبة إلى الخالق؛ كونه يخلق بأمره ما يشاء متى ما يشاء، وأينما يشاء، وكيفما يشاء، فإنَّه لتقريب المعنى وتوصيل المفهوم دلالةً استمددنا مثالًا توضيحًا للمستحيل الذي لا يكون إلّا مخلوقًا ومفعولًا من خالق يَخلقه ويفعله؛ ولذلك فلا وجود للصّعب على من بيده أمر الخلق استحالة، ولكنّ الصّعب يواجه من يحاول بجهده ومقدرته المحدودة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

فالمستحيل فعل لا تواجهه الصّعوبة، بل الصّعوبة تواجه الممكن الذي لا يكون إلّا في حدود الجهد والإمكانات المتاحة؛ فالمستحيل لا علاقة له بالجهد، بل له علاقة بالفعل المطلق الذي لا يكون إلّا بيد من فعل المستحيل الذي به خُلق الكون تمدّدًا وتسارعًا إلى النّهاية، التي من بعدها ستؤول الأكوان كونًا مرتقًا.

ولذا فعندما تُرتق الأراضين والسّماوات يعود الكون كما خُلق أوَّل مرّة: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[24]؛ فالوجود هكذا سيكون بين تمدّد وانكماش حتى النّهاية التي تعتدل فيها الأكوان على كرسي خلقها بلا استحالة.

[24] الرّوم: 11.

فالمستحيل لا يكون بالعمل، بل المستحيل لا يكون إلّا بالفعل أمرًا؛ ذلك لأنَّ العمل يتحقّق وفقًا لما يُبذل من جهد وما ينجز منه، أمَّا الفعل فلا يتحقّق إلّا بفعل الفعّال أمرًا؛ إذ لا حاجة للجهد (كن فيكون)، وعن غير مقارنة؛ فأنا مثل غيري، بنظرات عيني فقط، أقول لأبنائي: اصمتوا، أو اجلسوا، أو اخرجوا، فما بالك بخالقي وخالق الكون وكلّ شيء مستحيلٍ، ألا تكفي كلمة (كن)؟ مع العلم لن تكون (كن) بالأمر الذي نحن نعرفه، وبالكلمة التي ننطقها، بل كلّ شيء أعظم يفعل وفقًا للمشيئة العظيمة؛ ولذا إرادة الخالق إذا شاء وجود شيئًا أظهره على الوجود شاهدًا بين رؤيةٍ وانعدامها، ولهذا فإنَّ انعدام الرؤية هو الآخر يدلُّ على وجود شيءٍ.

وعليه:

فكلِّ ما لم يكن مستحيلًا ممكن، والفرق بينهما، هو: أنَّ الممكن، قابل للإثبات أو الاكتشاف، وهو في حاجة لمن يبرهن على معطيات وجوده، وهو قابل للإثبات مثلما هو قابل للنّفي والرّفض، وقابل للظّهور مثلما هو قابل للكمون.

ولهذا لو لم يكن ممكنًا ما تمَّ إثباته واكتشافه وظهوره وكمونه والشّكّ فيه، ومقارنته مع غيره، أو معرفة مدى ترابطه أو ثباته أو اهتزازه.

أمَّا المستحيل فهو المثبت الذي نعلم به ولا نعرف كيفيَّته إن لم يخبرنا عنها فاعله تعالى، فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بيوم البعث،

ولكنَّهم استحالة لا يعرفونه، ولا يعلمون ساعته؛ ولذلك فالخلائق تموت ولا أحد يستطيع إيقاف الموت عنها، والأحياء يخلقون ولا أحد يستطيع بث الحياة فيهم إن لم يولدوا أحياء؛ وهكذا الشّمس تشرق وتغرب ولن يستطيع أحد تغيير أمرها أو تبديله.

ولأنَّ وجود المستحيل لا يُنفى، ولا يُلغى، ولا يُقدّم ولا يؤخّر؛ فهو متحقّق في زمن المفاجأة، فالصّواعق والزّلازل والبراكين لا بدّ وأن تحدث، ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقينا منها، والمرض أتٍ ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنه، ويشفي منه، والصّحة تضعف، والعمل على تقويتها ضرورة ممكنة، والموت لا شكّ أنَّه آت وإن طالت أعمارنا وبلغنا عمر نوح عليه السّلام أو حتى تجاوزناه سنينَ؛ فكلّ ذلك ممكنٌ علمًا وبحثًا ومعرفةً. ولكن أن نلغي الحياة أو الموت حتى وإن دمّرنا ما يمكن لنا تدميره؛ فلا إمكانيَّة، وهنا يكمن المستحيل، أي إنَّ أمر المستحيل بين يدي فاعله أمرًا نافذًا؛ فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم هو يوم السبت فإنَّ يوم الأحد سيأتي غدًا وفقًا لِعِلمنا ومعرفتنا، ولكن أن يحدث الانفجار العظيم ثانيةً، أو ينكمش الكون، أو أن يُرتق في لحظة المفاجأة فذلك مستحيلٌ، ولن يأتي الأحد غدًا كما هو متوقَّع.

ذلك لأنَّ المستحيل هو فعل يُفعل بغتة: (في زمن المفاجأة)، وهو الذي يحتوي دائرة الممكن، والممكن لا يحتويه؛ فالممكن لا يكون إلّا وفقًا للاستطاعة، ولا يتحقّق إلّا على أيدينا، أمّا المستحيل فهو ما لا تستطيع

قوّتنا فعله، ولا أيدنا عمله، ولا عقولنا إدراكه ومعرفة كيفيّته. ومع ذلك فمن الضّرورة التفكير فيه بعمق ودون ملل، فالملل يحول بين الحقيقة والباحثين عنها.

ولذا ينبغي على البحَّاث إن أرادوا معرفة المجهول، أن يصوغوا له تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ فالبحاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلميَّة لن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل يتمكّنوا فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم؛ فالفروض وإن عظمت نتائجها فهي لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

ولذلك وجب تقدير الشّطحات العلميَّة؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة لما هو مستحيل فالشّطحات عندما تكون موضوعيَّة؛ فهي تمكّن من معرفته وإن قصرت عن معرفة الكيفيَّة التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعيَّة فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعًا بين ما هو مستحيل، وما ينبغي لنا أن نتمكّن من معرفته وإدراكه وتفكّره أو التفكير فيه.

ومن هنا فلا ينبغي أن تكون المناهج تدبّرية مقتصرة على الوقت الحاضر، بل ينبغي أن تكون تطلّعية، تستوعب الحاضر تدبّرًا ولا تقتصر

عليه؛ فالتدبّر لا يكون إلّا وفق الإمكانات المتاحة في الوقت الحاضر، أمّا التطلّع فهو البحث عمّا يُحدث النُّقلة إلى ما هو أفضل وأكثر ارتقاء.

ولذلك فالتّطلّع يُمكّن الإنسان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنه من تجاوزه ارتقاء، ومن ثمّ إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة؛ فلا ينبغي أن توضع إشارة (قف)، أمام التفكير العلمي لبني آدم، بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملًا متحقّقًا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدًا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التذكُّر والتفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع. أي: ينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة، حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلًا؛ ولذا فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب؛ ولذلك خُلقنا.

ولأنَّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي أن نعمل والمستحيل نصب أعيُننا؛ حتى ندركه عجزًا، وحينها ندرك أنَّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة؛ حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان غير متوقَّعٍ.

ولأنَّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاء، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُّقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي

والاجتماعي والإنساني: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[25].

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونيَّة، ولكن لأنَّ الارتقاء والدّونيَّة يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا؛ فهما بيد الإنسان رغبة واختيارًا؛ ولذلك ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُّقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاء.

وعليه:

فالفعل المستحيل لا يكون إلّا خَلقًا؛ ولأنَّه كذلك فلا يكون إلّا إعجازًا؛ إذ لا إمكانيَّة لخلق الشيء شيئًا إلّا بمشيء، وحتى إن عُدنا تفكُّرًا في ذلك التّساؤل الذي كنّا نطرحه على أنفسنا أيّام المراهقة والثانوية، وهو:

من الذي خَلقَ الخَالق؟ وكيف كان قبل أن يخلق ما خَلق؟

أقول:

بما أنَّنا نقول الخالق: إذن فلا ينبغي أن نسأل عمّن خلق الخالق؟ أي: كيف لنا من زاوية نقول: الخالق، ومن زاوية أخرى نسأل عنه؟ إنَّه الخالق الذي يخلق ولا يُخلق، ومن ثمّ فكلّ شيء يُخلق؛ فهو ليس بالخالق؛

[25] الكهف: 88.

ولذا فلا فواصل بين الخالق وخَلقه؛ فالخالق ليس على الصّورة ليكون موجودًا قبل أن يخلق الخلائق؛ ولذلك فالسُّؤال ليس في محلّه؛ لأنَّ السّائل جعل في ذهنه هيئة للخالق، وهنا تكمن العلّة؛ حيث لا هيئة للخالق، بل له مشيئة، والمشيئة هي فعل المستحيل، والتفكير في الفعل المستحيل يجعل السّائل في حيرة من أمره بعلّة في نفسه وهي: اختلاط فكرته عن الخالق الذي لا يُصوّر بما هو على هيئة الصّورة، وبالتّالي فمن يتصوّر لله هيئة، يجعله وكأنَّه داخل الإحاطة، ومن يفكّر داخل الإحاطة؛ فتفكيره لا يزيد عن كونه تفكير كتكوت داخل البيضة، والذي لا إمكانيَّة له في رؤية عالم أعظم من عالمه داخل البيضة؛ ولذلك فهيئة الله بلا هيئة، وصورة الله بلا صورة؛ ومن هنا فنحن غير عاجزين عن معرفة الله، ولا يليق بنا أن نسأل عمّن بيده الأمر (كن) كيف كان؟

نعم الله لم يكن، حتى نسأل عنه كيف كان، فمثل هذا السُّؤال يتعلّق بمن لم يكن فكان، كما هو حال الكون الذي كما يقولون عنه: كان نتاج ذلك الانفجار العظيم سببًا، وكما هو حال الأزواج التي لو لم تكن الأرض كائنة ما خُلقت منها الأزواج سببًا، وغيرها كثير من الخلائق التي قبل خلقها لم تكن بخلائق.

ومن هنا فلا ينبغي أن يكون السُّؤال: كيف كان الله؟

بل ينبغي أن يكون السُّؤال: من هو الله؟ وما هي صفاته؟

فالله هو الذي سمّى نفسه بهذا الاسم، وهو الواحد الذي تتعدّد صفاته وهو الواحد الذي لا يتعدّد، ولذا فهو لم يكن كائنًا، حتى يسأل عنه كيف كان؛ ولذلك فالكائن لا يكون إلّا على هيئة يراد له أن يكون عليها فيكون. ومن ثمَّ فأيّ كائنٍ لا يكون إلّا على هيئة ووفق مشيئة ليست بيده؛ ومن هنا فنحن ندرك الكون علمًا، ولكنّا لا ندرك هيئته، وكيف لنا بهذا ونحن لم ندرك صورة الكون متكاملة؟ أي: كيف لنا بهذا ونحن داخل محيط الكون الذي لم نتمكّن بعد من الخروج عنه بأيّ سبب، ومع ذلك يمكن لنا أن نتصوّر الكون بوصفنا جُزيءٌ فيه، أو حتى إنّنا أقل من ذلك بكثير، أمّا الخالق فهو على غير هيئة؛ كونه على غير صورة، وبالتالي لا إمكانيَّة لوضعه في أيّ هيئة ذهنية، ولا يليق بعقولنا ومدركاتنا التي أدركته استحالة أن تجعله على هيئة أو صورة وهو لم يضع نفسه فيها؟

ومن ثمّ فالله يخلق غيره، وغيره لا يخلقه، وبالعودة إلى السُّؤال: كيف كان الله؟

فالله لا يكون.

ومن هنا فالسُّؤال لا علاقة له بمن يُسأل عنه، بل له علاقة بالسّائل، الذي لا يعرف من كينونته إلّا إنَّه من نطفة، ومن قبلها من تراب، ولا شيء غير ذلك، ومع ذلك يسأل: كيف كان الله؟

أي: ألا يكفي إجابة أنَّه يعلم أنَّه قاصر عن معرفة كيفيّة خلقه التي ليس له رأي فيها؟ ويسأل عن كيف كان الله؟

أقول:

عليك بالبحث في الكون بلا توقّف؛ لعلّك تعرف كيف خُلق، وكيف كانت له هيئة قبل أن يُخلق، ووفق أيّة مشيئة هو خُلق؟ وكذلك عليك بالبحث في نفسك؛ لعلك تعرف كيف خُلقت، وكيف كانت لنفسك هيئة قبل أن تُخلق، ووفق أيّة مشيئة هي خُلقت؟ وعليك أن تفكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تتكلّم وتقرّر أو تعمل؛ فإن فعلت ذلك عن وعي، لا شكَّ إنَّك ستدرك أنَّ صفات الله تتعدّد بتعدّد نعمه، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

وعليه: إذا أردت أنْ تعرف مقدرة نفسك فعليك أنْ تفكِّر في المستحيل، والقدرة التي خلقته مستحيلًا، ومع أنَّه مستحل عليك يا بني آدم، فإنَّه ليس بمستحيلٍ على خالقه استحالة؛ قال تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[26]؛ ولذا فالذين يتفكّرون في خلق السَّماوات والأرض ليس لهم إلَّا التسليم المطلق باستحالة خلقها، ومع أنَّهم يسلِّمون بالاستحالة ويؤمنون؛ كونهم يقفون دونها عاجزين، فإنَّهم يعرفون أنَّها ليست بمستحيل أمام مقدرة الخالق؛ قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

[26] آل عمران 191.

وَالنُّورَ}[27]. ولأنَّ كلِّ خلق عظيم، إذن فلا فرق في العظمة بين خلق السَّماوات والأرض وخلق الإنسان أو بقيَّة الأحياء الأخرى؛ ولهذا سيظل فعل الخلق مستحيلًا على المخلوق حتى وإن عظم شأنه علمًا ومعرفة؛ ذلك لأنَّ الخلق صنع الخالق: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[28]، وقال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[29]. ومع أنَّ الإنسان خُلق ضعيفًا إذا ما قورنا بعظمة خالقه، أو إذا ما غلبته الشَّهوة وحادت به عن الصّواب ورجاحة العقل وحُسن التفكّر والتدبُّر، فإنَّه على القوّة الممكّنة من معرفة المستحيل والوقوف دونه استحالة، وكذلك معرفة المعجز والأخذ بأمره ونهيه الاعجازي، والتسليم بحججه وبراهينه وآياته الماثلة أمام المشاهدة والملاحظة.

التفكُّر في المُعجز:

ولأنَّ المعجز هو ما يفوق المقدرة العقليّة معرفةً وتدبُّرًا واستيعابًا، إذن فالتفكّر فيه لا يزيد العقل المتدبّر إلَّا استنارة ودراية، ولأنَّه لا معجز إلَّا من عند الله؛ فإنَّ التفكّر في قول الله يُمكّن من كسب الحُجّة والبرهان ومعرفة الآيات المعجزات؛ قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ

---

[27] الأنعام 1.

[28] النمل 88.

[29] النساء 28.

عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[30]، وقال: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[31].

إذن: التفكُّر في المعجز يمكّن من معرفة النّشوء الذي هو خَلقٌ من خَلقٍ، وإنبات من نبتٍ، كونه المعجز القابل للنمو؛ فالخَلقُ كونه غير مسبوق، هو الفعل المستحيل الذي لا يتحقّق إلّا أمرًا؛ ولذلك فالخَلقُ فعل يسبق المخلوق تحقّقًا كما هو خلق الكون شيء من لا شيء يذكر، أمّا النّشوء فهو الخلق ممّا خُلق إعجازًا، كما هو خلق الأزواج من الأرض، ومن الأنفس، وممّا لا نعلم: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[32].

أمَّا النّمو في ذاته فلا يكون نموًّا إلّا في ذات غيره نشوءًا؛ حيث لا وجود للنّمو من غير شيء ينمو، فهو عمليَّة ازدياد، كما هو ازدياد حجم الكون تمدّدًا وسرعة، وكما هو ازدياد حجم الخلايا نموًّا وضخامة، وكما هو نمو (نشوء) النبتة من بذرة إلى شجرة.

ولذا فكلّ شيء مؤسّس على الإعجاز ينمو إلى النّهاية (نهاية المكان أو الزّمان) الخاصّين بمن ينمو إعجازًا (نضجًا وعمرًا)، وهذا الأمر ينبغي أن يُلفِتَ نظر الإنسان إلى نفسه؛ كي ينمو قولًا وعملًا وإرادةً وسلوكًا،

---

[30] النساء 82.

[31] محمَّد 24.

[32] يس: 36.

أي: يجب أن ينمو العقل البشري تذكّرًا وتفكّرًا؛ حتى يبلغ معرفة بداية الخلق وسرّ وجوده؛ ومن ثمَّ يتمكّن من الوقوف عند المستحيل والمعجز، بهدف استجماع القوَّة من التَّاريخ المملوء بالمستحيلات والمعجزات والتجارب والقصص والمواعظ والعبر، التي تمكّنه عن تدبّر من إنشاء شيء جديدٍ يفوق ذلك الماضي ارتقاء؛ ومع ذلك فلا يقف عنده غاية؛ فالغاية بالنّسبة إلى من تدبّر أمره في حاضره ارتقاءً، هي بلوغ ما هو أعظم منه ارتقاءً؛ ولهذا فعليه أن يفكّر فيما هو أعظم، وعليه أن يعرف أنَّ بلوغه ممكنٌ؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، مهما عمل من الأعمال الحِسان فهو يعلم أنَّه بالإمكان بلوغ ما هو أحسن منها؛ ولهذا فلا ينبغي أن يتوقّف نموًّا، بل عليه أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنَّ العمل ارتقاء وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه، وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ولأنَّ الخَلقَ هو فعل المستحيل يتحقّق إعجازًا؛ فهو غير المتوقّف نموًّا وازديادًا، ذلك لأنَّ حاله من حال الكون المتمدّد تسارعًا؛ ولذلك فالخَلق بلا انقطاع يحتوي نشوءًا معجزًا، والنّشوء بلا انقطاع يحتوي نموًّا، والنّمو بلا انقطاع يحتوي ارتقاء يحقّق الرّفعة في دائرة الممكن.

ولأنَّ فعل المستحيل بيد الخالق؛ فالخالق لو لم يفعل مستحيلًا، ما نشأ الخلق وجودًا مُعجزًا، وما أمكن للإنسان ارتقاء، إنَّها حلقات متداخلة (خلق، نشوء، ارتقاء)، ولا يمكن أن تستقل حلقة عن أخرى، فحيثما

كان الخلق كان النّشوء، وحيثما كانا: (الخلق والنّشوء) كان الارتقاء، أي: لا ارتقاء بلا نشوء، ولا نشوء بلا خلقٍ، ولا خلق بلا خالق، ومن هنا، لا نميّز بين ما هو مستحيل إلّا بفعلٍ مطلق، وما هو نشوء إلّا بفعل معجز، وما هو ممكن إلّا بعمل واستطاعة.

فالنّشوء خلقٌ من خلقٍ، وإنبات من نبتٍ، وإعجاز من معجز؛ فالأرض عندما كانت مرتقة في السّماء كانت بيئة صالحة للإنبات بلا تكاثر، وهذه هي النشأة المعجزة (الأزواج) كما هو حال نشأة آدم وزوجه من تراب: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[33]؛ فإنبات آدم وزوجه من الأرض كان ظهورًا مشاهدًا مثل النبتة بالتّمام، غير أنّ النبتة ذات جذور ضاربة في الأرض، أمّا آدم وزوجه فلا ضربَ لهما في الأرض إلّا سلالة تمشي على ظهرها؛ ولهذا فخطاهما ينبغي أن تمشي عليها استقامَ قامة: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}[34].

وهذا الأمر ينبغي أن يلفت نظر الإنسان إلى أهميَّة الأرض؛ كونها الأم الأولى، والوطن الأوّل، الذي فيه بنو آدم إخوة مختلفون، ولِمَ لا يظلون إخوة مختلفين؟ فالاختلاف مشيئة الخالق في خلقه، وليس بعيبٍ أخلاقي، بل العيب الذي ينبغي أن يُجنّب هو الخلاف الذي بأسبابه تقاتلا ابنا

[33] نوح: 17.

[34] فاطر 45.

آدم؛ حيث سيطرت الشّهوة والرّغبة الشخصانيَّة على أحدهما؛ فأقصى أخاه ثمّ قتله.

ولأنَّها العلل المفرّقة بين الأخوة ألما؛ فَلِمَ لا تُقبر بيدٍ واحدة، وعن قلبٍ واحدٍ، ويترك المجال ارتقاء لنشوء المودّة والتوافق بين بني آدم، من أجل البناء نموّا يطوي الهوة بين الأرض والسّماء عملًا لا اتكاليَّة فيه من أحدٍ على أحدٍ.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلق، والنّشوء، والارتقاء علاقة ارتباطيَّة؛ فهي مثل علاقة (الأرض والبذرة والسّماء)؛ فالبذرة لو لم تُبذر أو تُغرس في الأرض ما نبتت ونمت على ظهرها ارتقاء في اتجاه السّماء وكأنَّها تأمل بلوغها غاية.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلقِ والنّشوء والارتقاء، علاقة بين مستحيل، ومعجز، وممكن؛ فهي علاقة اعتماديَّة بين السّابق (الخَلق)، والتابع (النشوء)، واللاحق (الارتقاء)؛ ولذلك وجبت المعرفة على اللاحق، لكلّ تابع لما قبله سابق، ممّا يجعل الماضي البعيد هو المستقبل بعينه، أي: لو كان أبونا آدم على قيد الحياة وسألناه: ما هو المستقبل المأمول؟ لقال: تلك الجنّة: (ذلك الماضي الّذي نشأ فيه ارتقاء قمّة ورفعة).

ومن هنا فإنَّ التفكُّر في المستقبل يربط المفكّر وما يفكّر فيه بالماضي المأمول، ومع أنَّ الزّمن في أذهاننا مقسّمٌ بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، فإنَّ التفكير تدبّرًا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول

عمّا نشأ فيه يقينا؛ ولذلك فالزّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاء؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم إنَّه سيعود إلينا ثانية.

ومع أنَّ خلق آدم وزوجه كان خلق قمّة في أحسن تقويم، فإنَّ آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا أنَّ العلّة قد ألمت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطًا دونيًّا، فندما واستغفرا لذنبهما؛ فتاب الله عليهما، ومن هنا، نشأ لديهما أمل العودة إلى تلك القمّة الماضية وهي بالنّسبة إليهما الأمل المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلّا بالعمل ارتقاء.

وهنا يتداخل الزّمن، فما يأمله آدم وبنوه المصلحون هو: تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنّة خُلقت وجودًا في الكون المرتق؛ حيث لا وجود للأيّام، بل هناك اليوم الواحد: (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه؛ إذ لا مجال للشّروق والغروب، ولأنَّه كذلك فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر، ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي، ليس له من الأيّام إلّا الزّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيًّا لن يجد شيئًا مسجّلًا إلّا في الزّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها ويتمّ استدعاؤه من الذّاكرة لا يكون إلّا حاضرًا في الزّمن الحاضر. أي: كلّ شيء يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجله الحياة في صفحاتها حاضرًا.

فالزّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة، التي عندما يوضع الأصبع على أيّ منها تعدّ هي مركز منتصفها، وفي الوقت ذاته تعدّ نقطة نهايتها، وهنا يعدّ الزّمن كلّه حاضرًا، أمّا الأعمال في الزّمن فهي الشّاهدة على من يقوم بها؛ ولهذا يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة؛ حيث لا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرًا.

ولذلك فالنّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها أو تحقيقها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنَّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني: أنَّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها، ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنَّ الزّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضٍ، وهو في الوقت ذاته بالنّسبة إلى إنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلّا مستقبلًا.

ومن ثمّ فتلك الجنّة بمقاييس زماننا هي ماضٍ، ولكن إنْ سلّمنا بذلك، ألا يعني أنَّ الماضي سيظل ماضٍ ولن يعود؟ وإذا كان كذلك فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به، وكأنَّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا فمن يعمل، ثمّ يزداد نموًّا وارتقاءً؛ فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا نقول:

إنَّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه فمن شاء بلوغه؛ فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاءً؛ ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الوراء، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوءًا وإبداعًا منتجًا لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنّاس إلى تلك الجنّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم (قمّة).

فالزّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل، لا تزيد عن كونها فواصل من عندنا، وليس من عند الزّمن؛ فالزّمن هو الزّمن حاضرًا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها تُعدّ السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنّة أملًا وارتقاء، ومن خفّت موازنه انحدارًا؛ إذ لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلًا.

ولذا فَخَلق الكون مُرتقًا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاءً، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطًا، لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون

متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[35].

يُفهم من هذه الآية أنَّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونًا أوَّلًا: (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنَّه فرصة؛ فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا فأوّل المغتنمين لها استغفارًا وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة، إذن: فلا ارتقاء إلّا إلى حيثما هي كائنة؛ ولأنَّها قمّة كائنة وجودًا فهي وجود سابق على من يرغبها أملا لاحقا، ومن هنا، فالزّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله ما يحتويه الزّمن وجودا؛ ولذلك فالزّمن هو الزّمن، فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرًا.

ومن ثمّ فالأهداف التي تصاغ في خِطّة بحثيَّة في الزّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد: (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورًا يوم تحديدها وصياغتها.

فالكون الذي كانت بداية الخلق منه حاضرة، هو الكون الذي ستكون نهاية الخلق إليه حاضرة، أي: لا وجود لشيء إلّا في حاضرٍ، وبما أنَّ خلق الكون مُرتقًا كان البداية، إذن: فالنّهاية لا تكون إلّا برتقه ثانيةً:

[35] العنكبوت: 20.

(ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) التي لا يمكن لنا معرفة كيفيّتها؛ لأنّ أمر معرفة الكيفيَّة الآخِرة مستحيل، ولأنَّه أمرٌ مستحيلٌ؛ فهو خارج دائرة الارتقاء إليه ممكنا.

ولأنَّه خارج دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع فلا إمكانيَّة لتصوّره، ولا إمكانيَّة لمعرفة كيفيَّته؛ ولذلك فسيظل المستحيل مستحيلًا وإن علمناه مستحيًلا: {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[36].

أي إنَّ نَشأة أخرى قد حُدّدت وستأتي لا محالة، وسينشأ الخلق عليها بعد أن ينتهي الكون تمدّدًا وبأيّة علّة، والاستحالة هنا، هي التي لا تكون إلّا ممكنا بين يدي الله، حيث لا استحالة أمامه.

ومن ثمّ فبنو آدم يعرفون أنَّ أساس النّشوء الآدمي من الأرض، وكذلك يعرفون أنّ الأموات يتحلّلون وينتهون فيها أثرًا باليًا، ويدركون أنّ للحياة بداية ونهاية، ثمّ إنَّ للموت نهاية: (موت الموت)، ولهذا؛ فالمؤمنون يعرفون أنّ من بعد النّهاية بداية أخرى على كيفيَّة أخرى، ولا تكون إلّا مستحيلًا: (وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ).

ولذلك فلا نشوء خَلقي مُعجز إلّا وفعل الخَلق يسبقه، ولا ارتقاء خُلقي إلّا ونمو الخُلق منشؤه، ومن هنا فلا يلد الشيء المعجز إلّا من

[36] الواقعة: 61.

الشيء المعجز، وفي المقابل الخالق يخلق الشيء من لا شيء استحالة، كما هو استحالة خلق الكون وفتقه أكوانًا.

ولأنَّ الخَلق هو فعل الوجود الأوّل؛ فالنّشوء من بعده وجود آخر مُعجز، ومع أنَّه وجود آخر، فإنَّه لولا الوجود الأوّل ما كان شيئًا آخر؛ ولذا وراء كلّ نشوء مُعجز نشوء من ورائه نشوء واستحالة: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[37]. أي: لو أجرينا مقارنة بين النّشوء الأوّل: (الطّين) المعجز ثمّ: (النّطفة) المعجزة، والنّشوء الآخر جنينًا متكاملًا معجزًا؛ فلا نشاهد علاقة، ولكن مشيئة الخالق شاءت أن تكون بداية النّشوء مرحلة قابلة للنّمو والارتقاء من حالة إلى حالة أخرى تختلف عنها مشاهدة.

ولذلك فلولا الطّين ما نشأت الأزواج، ولولا الأزواج ما نشأت النّطفة، ولول النّطفة ما كان المولود شيئًا آخر، وهنا، يصبح الخلق بين أيدي النّاس عجزًا واستحالة.

ومع أنَّ بداية النّشوء لم تكن على الكثرة، ولكن نهايته لا تكون إلّا عليها؛ فالبذرة الواحدة نشوء تنتج أكثر من سُنبلة، وفي دائرة الممكن ارتقاء السُّنبلة تمتلئ بذورا متعدّدة، وهذا يجعل عدد البذور المنتجة من

[37] المؤمنون: 12 . 14.

البذرة الواحدة مئات؛ ولذلك فالتكاثر يتضاعف نموّا وكثرة؛ ليُسهم في إشباع حاجات الإنسان المتطوّرة مع تطوّره عددا ومعرفة.

ومن ثمّ ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما في وسعيهم من أجل تحسين حالات النّمو وتحسين أحوالهم إلى ما يجب بلوغه نشوءًا وارتقاء؛ فالإنسان الذي يعلم أنَّه في دائرة الممكن قادر على أداء العمل فلا ينبغي له أن ييأس من بلوغ غير المتوقَّع نتيجة، ولأنّ دائرة الممكن لا تقتصر على المتوقَّع فقط؛ فلِمَ لا ينتبه الجميع، ويعملون على تحقيق غير المتوقَّع تعليمًا، وإنتاجًا، وعدلًا، ورفاهيّةً، وغزوًا للفضاء حتى اكتشاف الأكوان طباقًا واكتشاف ما يضاف إلى المعارف الممكّنة من إحداث النُّقلة.

ولأنَّ النّشوء الخلقي يؤسّس إلى نشوء مُعجز من بعده نشوء مُعجز، كما هو حال نشوء الأرض التي من بعدها نشوء الأزواج، تمّ نشوء التزاوج من الأزواج كثرة؛ فينبغي أن تكون هذه معطية تلفت العقل الإنساني إليها؛ لينشئ من الأشياء أشياء أخرى تسهم في إشباع حاجاته المتطوّرة؛ إذ كلّما التفت الإنسان إلى الأرض معجزة، اكتشف شيئًا جديدًا يمدّه بالمزيد المعرفي؛ فالأرض خامات وثروات ثمينة، تملأ ظاهرها كما تملأ باطنها، فمن بلغها نشوءًا وارتقاء معرفيّا تمكّن من تشييد المزيد نشوءًا حتى معرفة المستحيل وبلوغه مستحيلًا، وفي المقابل من تُلهه نفسه شهوة؛ فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونيَّة التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النشوء ارتقاء، لو لم ينحدر بداية؛ لكان إلى يومه هذا على قمّة الزّمن الحاضر في حُسن خَلقه وحُسن خُلقه. ولكنّ الغفلة قد أخذته؛ فعصى ربّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي، ثمّ حاول النّهوض، ولكنّه لا زال يحاول وهو بين أمل ويأس، أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي، ويأس بلوغه بعلل الشّهوة التي لا ترى الأنا إلّا مركزًا على حساب الغير.

وعليه:

فالنّشوء لا يمكن أن يكون صفرًا، بل الصّفر هو نقطة ما قبل وجوده أو نموّه؛ فالنّمو لا يبدأ إلّا من نقطة الصّفر، ولا ينتهي قمّة إلّا إليها، حيث التوقّف عن النّمو ارتقاء، أي: عندما يبلغ النّمو نقطة لا ينمو من بعدها شيئًا؛ تعدّ هذه النقطة صفرية؛ إذ لا شيء من بعدها إلّا الاستحالة وهي النقطة التي لا شيء من بعدها إلّا الانحدار إلى نقطة صفر البداية.

التفكّر في المُمكنُ:

التفكُّر في الممكن هو تفكّر فيما يجب الاقدام عليه أو القيام به، وهو ليس بمستحيلٍ ولا بمعجزٍ، وهو لا يكون تفكّرًا وعن دراية إلَّا بغاية نيل المأمول أو نيل المكانة، ومن هنا فإنَّ الارتقاء مكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقًا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل هناك من يره تطوّرًا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر

في الجينات والسّمات؛ ولكن نحن في هذا الأمر نقول: إنَّ الجينات الخَلقيَّة لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصيَّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانيَّة له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هيّ عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيًّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنَّه كذلك فالأمل لا يفارقه؛ ولهذا فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنَّها متطوّرة، نعتقد أنَّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم؛ ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقًا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعيَّة، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات.

ولذلك فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج، وفي الوقت ذاته يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع أنَّه الأمل في الزّمن الحاضر، فإنَّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعًا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثًا علميًّا مضنيًا، وجهدًا ينجز وفقًا للأهداف المحدّدة، والأغراض التي من ورائها، والغايات المأمول بلوغها قمّة، وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعًا للملاحظة مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم.

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدًا من الاحترام والتقدير والاعتبار؛ وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّدٌ على حساب الغير.

وهنا فالممكن ارتقاء هو المتاح تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلًا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجودٌ لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعدّ إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنَّه الممكِن ارتقاء فهو بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فالمتوقَّع منه هو الذي بحدوثه لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمَّا غير المتوقَّع فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقَّع في دائرة الممكن؛ ولهذا إذا ما حدث غير المتوقَّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقَّع يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع: (هو كما هو) إثباتًا.

ومن هنا ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقَّع وعلى علله ومسبّباته لاحقًا ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقَّع.

فالمتوقَّع وغير المتوقَّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن، التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%) والمتوقَّع يمكن أن يكون سالبًا، ويمكن أن يكون موجبًا؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقًا

لما هو مأمول، والذين لا يأخذون حذرهم يرسمون خططهم وسياساتهم وفقًا لِما هو موجب متوقَّع، وكأنَّ الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط؛ ولذلك فهم دائمًا يفاجؤون؛ كونهم لم يحدّدوا لغير المتوقَّع موضعًا.

وعليه:

ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيَّات وفقًا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقَّع موجبًا وما هو متوقَّع سالبًا، وما هو غير متوقَّع موجبًا، وما وهو غير متوقَّع سالبًا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلًا؛ فعلى الإنسان أنْ:

. يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

. أنْ يخطّط لما هو غير متوقَّع مثلما يخطط للمتوقَّع.

. أنْ يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس، حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

. أنْ يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان وارتقائه قمّة.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيَّات ويعد البرامج وفقًا لِما هو متوقَّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقَّع،

ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقَّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد تحدث؛ ولذلك فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا يعني: أنَّ دائرة الممكن هي التي فيها ينصهر الزّمن حاضرا، أي: إنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي الوقت ذاته يتدبّر الإنسان أمره وكأنَّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرًا. أي: إنَّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنَّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يره وكأنَّه الآن يواجهه تحدٍّ؛ ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيًا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة؛ حتى لا يحدث وتحدث المفاجآت المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلًا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة ارتقاء.

فالممكن احتمالًا يسبق ما يمكن أن يكون محتملًا أو غير محتملٍ؛ ولهذا فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلًا؛ فالممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل؛ ومن ثمّ يظل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق؛ ومن هنا يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطل حدوثه.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئًا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّه في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل؛ إذن فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلا، وعندها يدرك الإنسان أنَّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع أنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكنٌ، فإنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته، ومحدودية إمكاناته، وعلى الرَّغم من ذلك فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنًا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكن؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وإن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء؛ ولذلك فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقَّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقَّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقَّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقَّع مع غير متوقَّع؛ فإنَّ دائرة الممكن تظل واسعة؛ فمهما فكّرنا فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه؛ فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنًا، ما كان البحث عنه؛ ولهذا فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكن، وعدم الحصول عليه ممكن أيضًا. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس، الذي كان الأمر بالنّسبة إليه غير متوقَّع؛ وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الاحتراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقَّعا من قبل الذين قدّموا له الإهانات؛ ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقَّعين فعل ثالث غير متوقَّع، ألّا وهو الثورة، التي لم تطفئ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن علي من قمّة السُلّم السُّلطاني.

ولذا فالعلاقة بين المتوقَّع وغير المتوقَّع هي علاقة قاعدة واستثناء؛ فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازمًا معها، ومن هنا، يجب التفكير وفقًا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها فليس له إلّا المزيد من المفاجآت.

وبما أنَّ الارتقاء ممكنٌ؛ فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب؛ كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لا بدّ وأن تداهم

من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤًا، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا راقيًا تنجزه الإرادة.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، فإنَّه لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما على الرَّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب) أمَّا الاستثناء: (الاستسلام لها).

ولأنَّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوَّة تفكُّر وتدبّر؛ حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه؛ ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن هو ارتقاء لأداء العمل الموجب؛ وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل فهي تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدافعة إلى تنفيذ العمل ومواجهة ما يعيقه من صعوبات؛ ولذلك فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم

بكلّ قوّة، أمّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيديهم على الزِّناد مرتعشة، وهنا تكمن العلّة.

إذن: فمن تهيّأ واستعدَّ لعمل وأقدم عليه بعد حُسن تفكّر وتدبُّر ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيه، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توافرت الأفكار والحُجج تجاه القضيَّة الخارجيَّة مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عمليَّة التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعدادٌ فلا إمكانية؛ حيث لا إرادة؛ ولذلك فإنَّ غياب الإرادة يغيّب كلًّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمَّ تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما.

ومع أنَّه لا إمكانيَّة للارتقاء بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وإن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّد ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء.

ولأنَّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل ارتقاء لا بدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّات فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجآت في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحًا مساندًا.

ولذلك فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقَّع وغير متوقَّع، والعاملون عليها هم وحدهم

يتهيؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهبون لحسم الأمر، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية.

ولأنَّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاء يمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرِع بحركة إحداث النُّقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه إحداث النقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في حسبانهم أنَّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضًا.

ومن هنا كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن ألعب بذيلي بدلا من أنْ ألعب برأسي؛ فأنا عندما ألعب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

وعليه:

فمن أجل ألا يتكرر اللعب بالرّؤوس، ينبغي أن يحيا النَّاس، ويموت الموت، الذي كتب عليهم بعلل الفقر، والمرض، والألم، ثمّ يُقضى عدالة على الهيمنة، والحرمان، والإقصاء، ويفسح المجال للحقوق أن تمارس،

والواجبات أن تؤدّى، والمسؤوليات أن تُحمل، دون أن تكون الحاجات في حاجة للإشباع، ودون أن يكون من بعد العلم جهلا بذلك الصفر الذي من بعده أصبح الكون وجودًا متمدّدًا ومتسارعًا.

التفكير

التفكير تعمّق فكري بغاية إيصال العقل إلى معرفة حقائق الأمور؛ ومن هناً فحُسن التفكير حساباته دقيقة وتتجه إلى التدقيق والتفحُّص في الصغائر والكبائر مع صعوبة الاختيار أحيانًا بين معاييرها، وكأن العقل يريد أنْ يفرز الدقيق من الدقيق وأن يزن الأدق بالأدق.

ولذا فالتفكير عمليَّة عقليَّة لتقصّى الظواهر أو المشكلات المحيّرة مع إصرار المفكّر على الخروج من الحيرة بنتيجة تجيب على التساؤلات أو الافتراضات قيد التفكير والاستقراء الذهني واستنباطاته.

والتفكير في الشّيء لا يكون إلّا بتمكّن العقل منه شيئًا محيّرا؛ فيقرر العقل تحدّيه معرفة، حتى يدلل صعابه ويُليِّنه مرونة ومعرفة ذهنيَّة، ثمّ يهيئه وضوحًا للخروج؛ ليكون بين الأيدي معرفة منتجة، أو إبداعًا مضافًا.

فالتفكير إشغال العقل بعمليّة ذهنيّة تلفته إلى الموضوع تفحُّصًا وتتبّعًا، والتفكير هو انشغال بما هو موجب، ولهذا لم يكن هو التخمين الذي فيه من التلاعب العقلي ما فيه (من السّالب ومن الموجب)، ممّا يجعل صاحبه لاعبًا بالورقة التي يعتقد أنّها المربحة، ومن هنا يجد نفسه بين النّاس بين مذموم ومشكور وكلّ حسب ما هيّأ نفسه له عقليًّا؛ فالتخمين مع أنّه من إعمال العقل فإنَّ نتائجه غير يقينيَّة؛ وذلك لامتلائها بالشكوك والظنون، كونها لا تستند على الحجّة.

إذن: التفكير هو نشاط العقل في ذاته تفكيرًا، ولا وظيفة له إلّا أن يفكّر، وعندما يفكّر فيما يفكّر فيه يكون في حالة عمل مُلفت للمفكّر؛ ولذلك تعدّ الاستجابات المفاجئة بأسباب الاستفزاز المرعب هي استجابات عن غير وعي (عن غير تمعُّن) استجابات غير مسؤولة، لأنّها لم تكن نتاج انصهار المعرفة والأفكار في بوتقة الانتباه، ممّا يجعل الشوائب تتعلّق بها وهي تفتقد إلى الحقيقة، فالحقيقة نتاج التفكير هي التي يبلغها العقل عن وعي وانتباه سوأ أكانت نتيجة موجبة أم سالبة.

فالتفكير في الموضوع أو المشكلة قيد البحث، تفكير وعيٍ لأنّه وفقًا لأهدافٍ محدّدة وفروض أو تساؤلات تمّ صوغها موضوعيًّا؛ بغاية الوقوف على العلل والأسباب التي تكمن من ورائه، ممّا يجعل العقل المدبّر لأمره يفكّر في حلول أو معالجات، ولن يتوقّف عن التفكير حتى ينجز بحثه استقصاء بنتائج قابلة للتفسير وتُخرِج من الحيرة.

والتفكير كونه عمليَّة عقليَّة ذهنيَّة غير قابل للمشاهدة والملاحظة، مع أنّه لا عمل قابل للمشاهدة والملاحظة إلّا وهو نتاج ما يبذله العقل من عمل تفكيري.

فالتفكير يُمكّن من معرفة الشيء قبل أن يصبح شيئًا عند من لم يشغل عقله به تفكيرًا، ولأنّ الشيء في دائرة الممكن هو نتاج التفكير الذّهني، فهو في زمن التفكير لم يكن شيئًا على الصّورة المشاهدة، بل يكون على الهيئة، والهيئة هي ما يُمكن أن يكون عليه الشيء قبل أن

يصبح شيئًا مشاهدًا وملاحظًا؛ فالمفكّر متى ما تمكّن تفكيرًا من معرفة أو اكتشاف الهيئة التي عليها المكتشف يستطيع من بعدها أن ينقل أو يُخرج تلك الهيئة التي تصورها وضوحًا إلى حيّز المعرفة المشاهدة والملاحظة؛ ولهذا فلا هيئة في دائرة الممكن إلّا بالتفكير المعمّق الذي من خلاله يستطيع المفكّر أن ينتقل من حالة المشاهدة إلى حالة التفكير تجريدًا، ومن ثمّ يستطيع تفكيرًا أن يضيف مشاهدًا جديدًا إلى ذلك المشاهد الذي حيّره حتى تخلّص من حيرته تفكيرًا.

إذن: بأسباب التفكير والغوص في مفاصل مواضيعه تتمّ المعرفة المضافة للمعارف السّابقة، ومن هنا:

. لِمَ لا نفكّر حتى نتمكّن من الإضافة؟

. لِمَ لا نفكّر؛ حتى نتمكّن من المعرفة الواعية؟

. لِمَ لا نفكّر بلا إشارة قف؛ حتى نعرف ما يكمن من ورائها؟

. لِمَ لا نفكّر في كلّ شيء بغاية تحسين أحوالنا التعليميَّة والصحيَّة والبيئيَّة والذوقيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والثقافيَّة والنفسيَّة والاجتماعيَّة؟

وعليه فإنَّ التفكير في الشيء يظهر المفكّر على حيثيته، ويمكّنه من كشف خفاياه، والتفكير ارتقاء هو بحث عقلي وتفحّص فيما يجب وما لا يجب، مع اختيار الوسائل المحقّق لفعل الارتقاء؛ فبنو آدم في دائرة التفكّر ارتقاء هم بين متوقّع وغير متوقّع، أي: أنّهم بين متوقّع الارتقاء

ومتوقّع الدّونية، ومن جهة أخرى هم: يتبدّلون حيث لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه قمّة.

ولأجل ذلك ينبغي أن نغوص في عقولنا تدبّرًا حتى نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، وبين تحديد الأغراض وتحقيقها، وبين تحديد الغايات وبلوغها، وبين تحديد المأمولات ونيلها؛ فالأهداف تحدّد تفكيرًا قبل أن تصاغ أهدافًا قابلة للإنجاز، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها، ولهذا فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي ارتقاء أن يتمّ التفكير في أهداف أهم من التي أنجزت، ثم التفكير من بعدها في أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهميَّة إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ولهذا لا ينبغي أن تكون الأهداف غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها رفعة.

إنَّ قاعدة التفكير في تحديد الأهداف مؤسّسة على التفكير في المنجز قبل أن ينجز، ثمّ التفكير في كيفية إنجازه، أي: كلّ ما أنجز بنو آدم هدفًا ينبغي أن يكون من ورائه هدف أهم، ثمّ من ورائه هدف أكثر أهميَّة، ووراء كلّ هدف غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية ومن وراء الغايات مأمولًا.

ولذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع، البعض يحدّد أهدفه، ولكنّه لا يفكّر في كيفيَّة إنجازها ولا يعمل على إنجازها وكأنّ تحديدها هو الغاية؛ وكذلك هناك من يحدّد أهدافه ويعمل على إنجازها دون أن تكون له أهداف من بعدها، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات وتنوّع مشبعاتها، ولهذا؛ فالأهداف ارتقاء: ينبغي أن يكون من ورائها غرض تكمن من ورائه غاية.

وكذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع هناك من يحدّد أهدافه بمعزل عن قدراته وإمكاناته المتاحة، ممّا يجعل الأهداف لا تزيد عن كونها قد كتبت على الورق، أو خبّأت في الصّدور، وهنا يقف حمار الشّيخ عند العقبة، حيث لا شيء ينجز، سوى الحديث عن تلك الأهداف المقبورة.

ومن ثمّ فمن يريد أن يبلغ الغايات العظيمة، وينال المأمول؛ فعليه أن يجعل أهدافه درجات سلّم (درجة أعلى من درجة) أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلّم، أهّب قدمه الأخرى إلى الدّرجة التي هي أعلى من التي وضع عليها قدمه الأوّلى؛ ولذا فلا ينبغي أن يغفل أحد من بني آدم ويضع قدميه معا على درجة من درجات السّلم حتى لا تنكسر بأيّ علّة ويجد نفسه قد وقع على الأرض الدّنيا حطاما؛ فالقدمان لا يوضعان بسلام وصاحبهما مطمئن إلّا على قمّة استراحة السّلم الذي يرتق الأرض مع السّماء ارتقاء.

ومن ثمّ ينبغي على بني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة. ولكن إن لم يفكّروا ويعملوا ويفعلوا؛ فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

ولذا فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاء. أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاء وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر تفكيرا وأكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا إنّهم سيبلغون السّماء ارتقاء كلّما فكّروا وتدبّروا ثمّ عملوا، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب؛ فعليهم بإعادة التفكير في المحيّر وعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة؛ فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه ارتقاء.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، وبين الهادمين له انحدارا؛ ذلك لأنَّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين حتى وإن فكّر من فكّر في غير ذلك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[38].

إنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب على بني أدم أن يفكّروا بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاء.

فمن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظروف ارتقاء، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما

[38] هود 118، 119.

تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة؛ فالنّدم يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاء تذكّر؛ فاتعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراض، والغاية من ورائها قمّة.

ولذلك وجب التفكّر والتدبّر بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم، وتوجيهها وفقا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة؛ فيخلّصهم من التسوّل إرادة وعملا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة.

فرجالات الدّولة ارتقاء هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ ذلك لأنّ العصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون؛ فرجالات الدّولة ارتقاءً كلّما حكموا

عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كبروا تواضعوا، أمّا المدّعون لذلك؛ فهم مع كلّ هبة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وعلّة الدّولة.

فالدّولة ارتقاء تستهدف رجالات بعينهم وفقًا لما هم عليه من مكانة، ومع ذلك تخضعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك هم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن القيم والفضائل الخيّرة، بهدف إعادتهم إليها ارتقاء.

ومن ثمّ فمن يرى نفسه رجل دولة؛ فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنون هم يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو: التفكير في كلّ شيء يدفع ويحفّز على الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعية، أو الوطنية، أو الإنسانية، أو يمسّ معتقدا دينيا.

ولكن من بني آدم من يجهل ويغفل؛ فلا يفكّر فيما يجب؛ فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين التي تزداد ضيقًا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعًا، وللتأزّم أوجاع، ولكن أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى

وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك، وجب أخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمّا الحقد بين بني آدم؛ فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي إنَّ نار الحقد تحرق أوَّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره هو في حاجة لمن يطفئ عنه النّار التي بها نفسه تحترق؛ ومن ثمّ فمن يعتقد أنّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها؛ فلا شكّ أنّ عضّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم؛ فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار، والسُفليَّة المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب ترتقي علمًا ومعرفةً وتسامحًا وخبرةً وتجربةً؛ فتغزوا الأرض سلامًا، والسّماء بحثًا وارتقاءً.

فبنو آدم الذين بلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتًا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله؛ فسيبقون على أملهم وكأنّهم بلا آمل، أمّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل؛ فلا شكّ أنّه سيُسهم في إحداث النُّقلة ارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنَّ الهدم سيقع على رأسه وكأنَّه بلا رأس.

وهكذا هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك فلا ينبغي أن يكون بنو آدم سمّاعيون

فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظًا، وعليهم بالتدبّر تحليلًا وتفسيرًا وتخطيطًا وسلوكًا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر من أجل ما يجب، حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاء بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبياء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا فهم يفكّرون والأمل لا يفارقهم بغاية العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه، ولأجل ذلك فمن آمن منهم يسعى ويعمل من أجله ارتقاء، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، يصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها؛ ولذلك هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك؛ فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك، المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعا وتمدّدا.

وهنا أقول لبعض علماء الفيزياء وعلماء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم؛ فقد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار من الكون؛ ولذا فَلِمَ لا تفكّرون موضوعيَّة وتتوقّفون عند الكتاب لتتبيّنوا قوله لعلكم ترشدون إلى المزيد من التفكير الممكّن من المزيد من الاكتشاف العلمي، وإلى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النّاس جميعًا)؛ ولذا فإن كنتم أهل موضوعيَّة؛ فلا يليق أن تتجاهلوا كتابًا يملأه العلم والبيّنة؛ فأنا لا أقول لكم ادخلوا الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملأه العلم آية من بعدها آية ترشد للخير وللمحبّة.

ولهذا فلا ارتقاء لبني آدم إلّا والبحث العلمي مصدره، والفضائل الخيّرة مصدره، والقيم الحميدة مصدره، ومن يغفل عن ذلك ليس له من خيار إلّا الانحدار على بلاطة الدّنيا.

ومن ثمّ فالارتقاء بالنّسبة لبني آدم هو: أمل قابل لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمّا الدُّنيا؛ فهي: الأرض وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة. وبين هذا وذاك، وجد الإنسان نفسه تفكيرًا بين التّخيير تارة، وبين التّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير: (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحًا أو تعمل طالحًا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو

موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا فالارتقاء قمّة، هو: ما يمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) وما يمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة)؛ حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعةً وارتقاءً.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب تفكيرًا واعيًا كما تتطلّب من بعده عملًا مبدعًا ومنتجًا بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية) والفوز بها نعيم مأمولًا.

لذا يجب التفكير في كلّ شيء ولا شيء، ولا سقف ولا موانع توضع أمام الفكر الإنساني، ثمّ يجب بعد ذلك الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود، ذلك لأنَّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم؛ ولهذا فلا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكان له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعًا؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك فالغناء رحمة؛ والفقر أزمة ومواجع، ولأنّهما كذلك، وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب من أجل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاء.

فالغنى ارتقاء حقّ لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمّا الفقر ليس بحقّ، بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال، أمّا العجزة والقصّر؛ فحقوق عيشهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالًا على الغير؛ فالعيب لا شكّ أنّه سيلاحقهم ومن ورائهم سيلاحق المسؤولين في الدّولة.

إذن فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة؛ حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممارسة حقوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤوليَّاته. وفي المقابل يحدث الانحدار والنّزول سُفليَّة لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقًّا وواجبًا ومسؤوليَّةً.

ولذلك ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل ارتقاء.

التفكيرُ في أثناءِ زمن التفاوض:

التفكير في أثناء زمن التفاوض تفكير محشور بين ضيق وضيق، ومع ذلك ينبغي التفكير بين كل سقف وسقف يُرفع؛ ذلك لأنَّ المتفاوضين بداية ليس لهم إلَّا رفع الأسقف، وكأن سبل التفاوض مسدودة، أو وكأنَّ أمر التفاوض من المستحيلات. أي مع أنَّ التفاوض بغاية التفاهم وتجنّب ما يسيء، فإنَّ بداياته فيها من التعسيرات ما فيها؛ ولهذا فالتفاوض في حاجة لنوعٍ من التفكير الخاص؛ بحيث يتم الاستماع إلى الشَّطحات والاستفزازات؛ ومن ثمَّ يتم امتصاصها حتى لا تكون إعاقة أمام الأهداف المرجوة.

ولهذا فالتفكير سلسلة من العمليَّات الذّهنيَّة التي تُمكّن المفكّر من المعرفة أو التبيّن بعد غوصٍ فيما يفكّر فيه تقصٍّ، أمّا التفكير تفاوضٍ؛ فهو المستهدف حلّا لأزمة أو اختلافٍ بعد قناعة أو ضرورة استوجبت الاعتراف بتجاوز الخلاف من خلال حلول مرضية للمختلفين، والتفاوض لا يكون إلّا بغرض التسوية، التي لابدّ وأن يكون فيها شيء من التنازلات.

ومن هنا فالتفاوض فن إدارة الحوار والنقاش والجدال، وهو يعتمد على مواجهة الحجّة بالحجّة والدّليل بالدّليل، أو الشاهد بالشاهد، وينتهي إلى نتيجة مفادها التعويض أو العفو أو التسامح أو كلّها وفقل للقضايا المتجزئة من القضيَّة العامّة (المشكل الرّئيس).

ولأنَّ التفاوض فنّ؛ فإذا دخلت مجالات التفاوض في القضايا السياسيَّة لا تجعل العاطفة مرتكزًا رئيسًا في ملكاتك العقليَّة حتى لا تغفل، وعليك أن تفكّر وفقًا للآتي:

. تقبّل المفاوضين كما هم لا كما يجب أن يكونوا عليه.

. تأكّد أنَّ في بدايات التفاوض ستكون الجفوة؛ فلا تستغرب، ولا تتسرّع بالأحكام؛ فالزّمن كفيل بإزالتها.

. فكّر فيما أنت تفكّر فيه أثناء التفاوض.

. فكّر فيما يقال قبل الردّ على ما قيل.

. اعتمد في أرائك على دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع).

. لا تضع أهدافك الرّئيسة في مواجهة العاصفة.

. أعرف أنّك ستتعرّض للاستفزازات من وقت لآخر؛ فلا تستغرب حتى لا تفقد توازنك.

. أقبل الاستفزازات إذا كانت المفاوضات تسير في الاتجاه الموجب، حتى تمتصّ الغضب، ثمَّ أرسل ما يقابلها في الوقت المناسب الذي تكون فيه الفرصة سانحة للطّرف الآخر لامتصاصها.

. أرفض الاستفزازات في وقتها إذا كانت المفاوضات لا تسير في الاتجاه الموجب لقضيّتك.

. إذا أردت إطالة زمن التفاوض لأسباب تخدم القضيَّة؛ فأعمل ما من شأنه أن ينهي التفاوض ليتأجل حتى تكسب وقتًا للعودة في زمن لاحق.

. إذا كنت في حالة ضعف عليك بإطالة زمن التفاوض.

. إذا كنت قويًّا ومنتصرًا عليك بالإسراع بإنهاء زمن المفاوضات؛ فطولها قد يعطي الفرصة للخصم بأن يُجمِّع قواه من جديد فلا يُمكِّنك من تحقيق ما أنت تريد.

. إذا تماثلت قوّة المفاوضين فعليهم باعتماد المنطق في التفاوض، أمَّا اللغة فيها من إضاعة الوقت والخروج عن الموضوع ما فيها.

. إذا كنت منتصرًا وخصمك ضعيف اعتمد على اللغة؛ فخصمك بلا شكّ سيحاول قدر المستطاع أن يعتمد المنطق ليضعك في دائرة الإدانة.

. أرفع سقف المطالب إذا أردت الموافقة على المطالب الأقل.

. عند الضّرورة أقبل بالتنازل، ولكن لا تُقدِّم تنازلاتك دفعة واحدة.

. إذا قرّرت التنازل للضّرورة فلا تتنازل إلّا بمقابل.

. لا تضع حُسن النيّة رفيقًا لك في زمن التفاوض.

. لا تقرّ الأحكام المسبقة فكلّ شيء يتغيّر.

. إذا قبلت أن تكون مفاوضًا نيابة عن النّظام؛ فلا تستغرب أنْ تكون الضحيَّة من قِبل النّظام الذي التي أنت تفاوض من أجله.

. التفاوض فرصة لأن تتعلّم؛ فاغتنم الفرصة تعلّمًا وخبرة.

. التفاوض تجربة أحرص على نجاحك فيه، حتى وإن جمّدت المفاوضات أو فشلت.

. المفاوضات إذا فشلت في جولة فلا تتسرّع بإصدار الحكم على فشلها؛ فزمن التفاوض طويل.

.كن فطنًا لكلِّ ما يقال في الجلسات الرّسميَّة، أو في جلسات الرّاحة المشتركة.

. التقارب في جلسات الاستراحة المشتركة أكبر فرصة لتسريب ما يمكن أن يسرّب من أجل نجاح المفاوضات.

. اقرأ كلّ ردَّت فعل سواء أكانت كلمة، أم حركة، أم فعل.

. استقراء أفكار الخصم أو من ينوب عنه قبل أن تُقدِّم رأيًا أو مقترحًا.

. قبل الاتفاق عليك بالاعتماد على التحليل أكثر من أن تعتمد على تقديم الآراء والمقترحات.

. لا تتسرّع في تقديم الحلول؛ فالتسرّع بتقديمها يحرق أوراقك التفاوضيَّة، ويجعلك ملاحقًا بإعطاء المزيد من التنازلات.

. بعد الاتفاق لا داعي للتحليل فزمنه قد ولى.

.كن في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قادرًا على الإنصات، ولا تترك شاردة ولا واردة إلّا وتلمَّ بها.

.كن صبورًا فالصبر يُمكِّنك من المغالبة.

. أحسس الطّرف الآخر بحرصك واهتمامك، واضع اللوم عليه كلّما تهيئة لك الفرصة في إلصاق ذلك به.

. تقبَّل الآخر كما هو لتعمل على نقله لما يجب.

. إذا أحسست من الطّرف المفاوض سيجرُّك إلى ما لا ترغب؛ فعليك بأن تطلب زمنًا للرّاحة؛ لكي تتمكّن من أنْ تستجمع أفكارك وقواك الذّهنيّة وتقتنص مسوّغًا أو مخرجًا أو حلًا.

. حاول قدر الإمكان في بعض الأحيان أن يحسَّ الطّرف المفاوض وكأنّك محايد بما تقدّمه من نصائح لخدمة الطّرفين أو الأطراف ذات العلاقة.

. إذا طلب منك الطّرف المفاوض (الآخر) رأيا فلا تستعجل على تقديمه حتى وإن كنت واثقًا، بل عليك أن تناقشه أوّلًا مع فريقك المفاوض إنْ كنت أحد أعضاء الفريق.

. إذا طلب منك الخصم رأيًا، تأنّى وفكِّر جيدًا، حتى لا تقع في الفخّ من الغاية المترتّبة عليه.

. لا تظن أنَّ المفاوضين المتقابلين معك على طاولة المفاوضات هم بسطاء، إن ظننت ذلك تأكد أنّك استعجلت استعجالًا في غير محلِّه.

. كن مرنًا من أجل القضيَّة التي تفاوض من أجلها، ولا تكون مرنًا على حسابها، أي كن صلبًا من أجلها.

. حاول قدر الإمكان أن تستكشف نقاط الضّعف في بعض أعضاء الطّرف المفاوض لك، وأعمل عليها، ولا تجعل القيم قيدًا عليك، بل أعمل عليها حتى تكون قيدًا بين يديك، ولا تغفل حتى لا تؤخذ منك، وبها تُقيَّد أو تجد نفسك قد وقعت في المصيدة.

. كُن قادرًا على الاستقراء والاستنباط فمعظم ما يثار بين المفاوضين وبخاصّة في جلسات الحوار الأولى هو حديث مُبطَّن.

. لا تغفل عن قوانين نظريَّة الاحتمالات التي بها تُقلَّب المعلومة على عدد زواياها وأركانها؛ فعلى أساسها أسّس حديثك أثناء الحوار والتفاوض؛ ليكون حمَّالا لأوجه، ولِعلمك أنَّ المفاوضين قادرين على استقراءه من أوجه عدّة فلا تظن أنّهم غير متمكّنين من الفهم المتعمَّق لنظريّة الاحتمالات، ولكن بحوارك حمَّال الأوجه تمتلك الحقّ الذي به تؤكّد على أيّة كيفيَّة أنت تقصدها في اتجاه استمرار الحوار أو في اتجاه توقُّفه.

. إذا أحسست بأنّك أصبحت مؤيدًا من الطّرف الآخر أعرف أنّك تحتاج لمراجعة نفسك، أو مراجعة الكيفيَّة التي بها قد أثرت الموضوع، وإلّا ستجد نفسك في اتجاه بداياته لا تؤدّي إلى النهايات التي من أجلها كنت مفاوضًا، إلّا إذا كنت عن قصدٍ ودراية بالمترتّب عليه.

. أعرف كيف يُفكِّر الخصم؛ لكي تتمكَّن من تقديم الحُجَّة المناسبة في وقتها المناسب؛ فعلى سبيل المثال: إذا كنت ليبيًّا والطَّرف المفاوض لك فرنسيًّا؛ فعليك أن تُفكر في القضية مع المفاوضين الفرنسيين بعقل باريس، وإذا كان الطرف المفاوض لك ألمانيًّا ففكر وحلل واستخلص وفسّر بعقل برلين. وهكذا إذا كان المفاوض أمريكيًّا فعليك أن تفكِّرَ وتحلل وتستنتج وتفسِّر بعقل واشنطن. أمّا إذا فكّرت وحللت واستنتجت وفسّرت بعقلك فإنّك قد لا تتمكّن من اختراق عقل الآخر والتأثير فيه والوصول إلى نتيجة مرضية.

وعليه:

. فكّر قبل أن تقول رأيك.

. تأكد قبل أن تَقدِم.

. تبيّن قبل أن تتخذ قرارًا.

. خطّط قبل أن تعمل.

. تذكّر حتى تعرف.

. لا تتسرّع فالتسرّع مصيدة.

. تأنّ فكلّ شيء ممكنًا.

. تحقّق بمقارنة.

. دقّق بملاحظة.

. استنبط بفطنة.

. حلل بمنهج.

. ابحث بطريقة ووسيلة وأسلوب.

. شكّ حتى ترى الحقيقة بين يديك بيّنة.

ولهذا:

. شُك قبل أن تَقدِم على الفعل.

. تيقَّن قبل أن تَقدِم على الفعل.

. إقراء قبل أن تكتب.

. فكّر قبل أن ترسم خطّة.

. ارسم خطّة قبل أن تعدّ برنامج.

ولهذا لا يمكن أن يتمّ أصلحًا أو تقويمًا للقول أو السّلوك أو الفعل أو العمل ما لم تكن الفكرة واضحة كي يتمَّ تصحيح أو تغيير المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة.

العمل في دائرة التفكير:

مع أنَّ التفكير إشغال العقل بحيويّة استدراج الفكرة وتوليدها أو استنباطها، فإنَّ التفكير لا ينبغي أن يكون غاية في ذاته، بل ينبغي أنْ يكون التفكير عمل العقل من أجل العمل. أي ينبغي أن يرتبط عمل العقل فكريًا بما يمكّن من العمل في ميادين الحياة زراعة وصناعة واقتصادًا؛ وذلك بغاية بلوغ المأمول ونيله.

ولذا فالتفكير جهد يبذل دون أن يشاهد؛ كونه عمل داخلي، (التفكير في مملكته) أي: في الحيز الذي تتولّد منه الأفكار ويُحسن التدبّر، ومن هنا فالتفكير عمل لأنّه نتاج الحيوية التدبّرية التي تستقرئ المشاهد وتفكّر في كيفيَّة وجوده، حتى يتم التبيّن المعرفي المنقذ من التأزّم.

فالتفكير عمل يمكّن المفكرين من معرفة ما يؤدّي إلى الارتقاء رفعة عن كلّ ما يؤدّي بأصحابه إلى السُفليَّة والدّونيَّة، وهو الأخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيرة مع وافر التقدير والاحترام للأفراد والجماعات والمجتمعات والحضارات والثقافات، والأديان، كما أنّه الممكّن من التوافق والاندماج الذي فيه الإنسان قيمة في ذاته؛ فلا يهان ولا يقلل من شأنه ولا يحرم من ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤوليَّاته. والارتقاء قد يكون بأسباب العلم والثَّقافة وحسن المعرفة، وقد يكون نتاج التربية وتهذيب السُّلوك ومخافة الله.

ولأنَّ العمل ارتقاء هو نتاج التفكّر إذن لا عمل بلا تفكير، أي لو لم يكن التفكير سابق على العمل ما كان العمل منتجًا، ومن ثمَّ فالعمل على صفتين:

الأولى: أنَّ التفكير عمل في ذاته، كونه الجهد الذي يبذل عقليًّا، حتى ينتج فكرة قابلة لأن تتجسّد في عمل يسلك من قبل الغير (الذين لم ينتجوه فكرًا).

الثَّانية: أنَّ العمل وظيفة يمكن أن يمارس، (يمكن القيام به على أيدي العاملين) المنفّذين للفكرة عملًا.

فالعمل كونه نتاج الفكرة فهو بين كيفيّة وكميّة: كيفيّة من حيث الجودّة، وكميّة من حيث ما يشبع دون أن يكون هناك نقص.

إذن: العمل تفكير يستوجب جهدًا يبذل مع خالص النيّة، أي لا عمل ولا إنتاج إلّا والجهد يبذل، والجهد هنا قد يكون فكريًّا، وقد يكون عضليًّا، وقد يكون فنيًّا (خبرة ومهارة) وهذه من مجوِّدات العمل ارتقاء؛ فلا ينبغي الإغفال عنها وعن أهميّتها، وعن أدوار أصحابها. أي يجب أن تقدّر تقديرًا عاليًا من حيث الحوافز والدّوافع وكلّ ما من شأنه يشجّع على المزيد أو يشجّع آخرين ليلتحقوا بخانة المبدعين المهرة.

والعملُ تفكيرٌ مسؤوليَّة لا يحملها إلّا من هو على دراية ومعرفة بما له وما عليه، أي معرفة بما يجب ويتّبع، وما لا يجب ويجنّب أو يبتعد عنه، مع معرفة وافية بقوانين وتشريعات العمل والمهنة والوظيفة وحمْل المسؤوليَّة حتى وإن كانت عبء جسيم.

وعليه:

. العمل تفكيرٌ وعن دراية لا يكون إلّا عن وعي ومعرفة ومسؤوليَّة.

. العمل تفكيرٌ لا يكون إلّا والأمل لا يفارق عقول المنتجين.

. العمل تفكير يحقّق الرّفعة الذّوقيَّة.

. العمل تفكير يُحدث النُقلة إلى الأجود والأنفع والأفيد.

. العمل تفكير احترام للمهنة.

. العمل تفكير حقّ ينبغي أن يمارس.

. العمل تفكير واجب ينبغي أن يؤدّى.

. العمل تفكير مسؤوليَّة يجب أن تُحمْل.

. العمل تفكير حُسن تدبّر ينبغي أن يقدّر.

. العمل تفكير نتاج تفكّر فيما يجب وأدائه مهنيًّا.

. العمل تفكير تجاوز للكسل والاتكاليَّة والطَّمع.

. العمل تفكير حسن أداء وجودة إنتاج.

وعليه فالعمل تفكيرٌ هو الارتقاء رفعة وتقدّم تجاه ما هو أفضل وأجود وأنفع، ولا يكون الارتقاء إلّا ببذل الجهد وعن دراية مع سابق تخطيط وفقًا للإمكانات الممكنة، ومن ثمّ فلا إمكانيَّة للتقدّم ما لم تتوافر معطياته من بحث علمي، وأخذ بالقيم الحميدة، والفضائل الخيّرة مع طموح وغايات من ورائها نيل المأمولات العظيمة.

ولذلك فالكلمةُ مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوكٍ يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل ارتقاء (بناءً وإصلاحًا وإعمارًا مع ا رتقاء الأخلاق قمّة)، والعمل ارتقاء هو إنشاء الشّيء من الشّيءٍ، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعًا، والفضائل والقيم من ورائها إنقاذًا.

ولأنَّ الأمم والشّعوب التي تقدّمت لم تتقدّم إلّا بالعمل؛ فَلِمَ لا يَقدِم المتأخّرين عنهم على العمل الممكّن من طي الهوة بينهم وبين المتقدِّمين الذين ارتقوا علمًا وتقنيةً وحُسن إدارةً؟

ولأنَّ التفكير لا يكون إلّا عملًا؛ فينبغي على من يرغب ارتقاء أن يفكّر في العمل النّافع، وينبغي أن يجوِّد منتجاته؛ لتكون منافسة لمنتجات الغير؛ ذلك لأنَّ المنتجات غير المنافسة لن تجد لها مكانًا في أسواق المستهلكين.

وهذا يعني: إنْ لم تَقدِم الشّعوب وبكلّ طاقاتها على العمل المنتج والمبدع فستظل متخلّفة وتابعة لمن يمتلك القوّة المنتجة ويسيطر على السّوق، وقد تصبح مدانة بما لم تستطع تسديده، وهنا ستجد نفسها أمام خيارات قد لا تكون محمودة، ويومها لن ينفع النّادمين ندمًا.

والعمل تفكير يجعل المكانة لمن لم تكن لهم مكانة؛ ولذا فمن رغب مكانة ويأمل تبوئها فعليه بالتفكير عملًا، ثم عليه تفكيرًا أن يعمل ويحرّض على العمل لتكون المكانة فرديَّة وجماعيَّة: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ}[39]. فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام جميعهم يعملون ويحرّضون النّاس على العمل، ويحبّون من يعمل من أجله وأجل من تربطه بهم علاقات، {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[40].

---

[39] الأنعام 135.

[40] التوبة 105.

وهكذا جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام أُرسلوا للنّاس من أجل الهداية والعمل ارتقاء؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبًا إلى جنب مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق في الجنّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأ فأخرج به هبوطًا من الجنّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعًا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنّة، التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه إرادة، حتى وإن كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه، ومع ذلك ساد الصّراع بين النّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن صدّق الرّسل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق؛ فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا فالإنسان تفكيرًا لم يقف عند ما يأمله، بل تجاوزه بالتفكير والعمل حتى صعد إلى القمر الذي كان يعتقد أنّه الجنّة، ثم تجاوز القمر كونه لم يكن كذلك، فغزى الفضاء اكتشافًا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا بلوغ الجنّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام؛ فمن أخذ بها ارتقاء، أخذ بما يجب الأخذ به، ومن لم يأخذ بها؛ فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع

الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، فإنّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق السّماء تفكيرًا، ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل ودفعه إليه ارتقاء.

إنَّ الإنسان لو لم يكن مؤهلًا للارتقاء، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء وهو يأمل في المزيد ارتقاء، ولأنّ حاجات الإنسان متنوّعة ومتطوّرة؛ فهي إن لم تواكب من قِبله بالعمل المتطوّر تصبح ضاغطة عليه ألما شديدًا؛ فعليه بالعمل وتحدّي الصّعاب، ولا يخشي شيء سوى الحقّ الذي يمكّنه من التقدّم والنّهوض وتحقيق الرّفعة والمكانة قمّة.

ومن هنا فما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي الممكّن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى؛ ولهذا فالتفكير عملًا يحقّق:

- التعرّف على المتوقّع وغير المتوقّع.
- التعرّف على المجهول.

. عمل الخوارق.

. الرّفعة.

. تبوء المكانة.

. القدوة الحسنة.

. الاعتماد على الذّات.

. بلوغ الغايات.

. نيل المأمولات.

وعليه:

. فكّر تعلّمًا حتى تجعل الجهل خلفك، ولا فرصة له أن يلاحقك.

. فكّر عملًا حتى ترتقي وتتبوأ المراكز المتقدّمة.

. فكر تحدٍّ حتى تخلق لك مستقبل أفضل.

. فكّر حتى تجعل المهنة وكأنّها الهواية وعن رغبة واشتياق.

. أتقن عملك حتى يصبح لك هويّة.

. فكّر تطلّعًا إلى الأجود؛ حتى وإن تمكّنت من أداء عملك ارتقاء.

. فكّر وأعمل فلا قيمة لك إلّا بالعمل ارتقاء.

. التفكير لا سقف له؛ فلا تجعل من مستوى الجودة الذي بلغته مظلة لتجلس تحت ظلّها وكأنّها الغاية، بل عليك أن تعرف أنَّ الجودة درجات سُلم يتمّ الصّعود عليها، ولا يتمّ الصعود إليها؛ ذلك لأنّ الوسيلة ليست الغاية ولا المأمول، ولأنَّ السّلّم وسيلة فلا تقف عنده وكأنّه المهم الذي لا شيء مهم من بعده.

ولهذا فعليك بالتفكّر والعمل، فالعمل الصّالح كما يرضي القائمين به جهدًا مبذولًا فهو يرضي الله، ولكلّ جزاؤه: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[41]. أي لكلٍّ حسابه؛ فللعمل الرَّاقي حسابه، وللعمل الواطي حسابة، ولا يظلم أحدًا: {نَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}[42].

فكِّر فيما تُفكِّر:

التفكير مع أنَّه عقلي، فإنَّه يأخذ من الوقت ما يأخذه قبل إنتاج الفكرة، ومع ذلك حتى والعقل يفكّر ينبغي على العاقل دراية أن يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يصدره حكمًا.

ولذا فالإنسان مع أنَّه عاقل فإنَّه إذا لم يفكّر فيما يفكِّر فيه قبل أن يحدث قد يجد نفسه في دائرة الممكن في غير المتوقّع، ومع ذلك ليس له بدّ إلّا أن يفكّر حتى يعرف من جديد كيف يفكّر.

---

[41] الزلزلة 7، 8.

[42] النساء 40.

إنَّ الاعتماد على الفكرة المسبقة بفكرة مسبقة قد يؤدّي إلى قولبة العقل وجعله في حالة تبعيَّة للفكرة التي تؤدّي به إلى التعارض مع ما يجب، والتمسّك بذلك يجعل الفكرة غير فاعلة والتفكير غير مُفعَّل.

والفكرة الفاعلة هي الفكرة المفتوحة المستوعبة لِما ينبغي والمتطلّعة بأصحابها لِما يجب؛ لذا تُقبر أفكار البعض عندما يصبح هذا البعض يدافع عن الفكرة وكأنّها ثوابت لا تتغيّر أو لا تتحسّن؛ فعندما يتبنّى الإنسان فكرة تستعبده عندها ستموت الفكرة ويصبح متبنيها بلا حُجَّة وكأنَّه فقد ملكة التفكير، ولهذا ينبغي أن يفكّر؛ ليعرف كيف يفكّر وإلّا سَيُقبر ما يفكِّر فيه قبل أن تقبر تلك الفكرة المتبناة؛ ذلك لأنَّ الفكرة السّابقة على الفكرة قد تكون قيدًا عليها، وقد تكون داعمة لها؛ فهي قيد عليها عندما تكون مُقفلة (إقصائيَّة)، وهي داعمة لها عندما تكون على الاستنارة (استيعابيَّة).

ومن هنا ينبغي أنْ لا نغفل عن ذلك التداخل العلائقي بين التفكير والفكرة؛ ومن الصّعوبة بمكان تناول أحد هذين المصطلحين بمعزلٍ عن الآخر؛ ذلك لارتباطهما الشّديد لغةً ومعنىً؛ فتفكيرنا في الشيء أو تفكُّرنا فيه يعني أنّنا قمنا بعمليَّة (التفكير) الذي قد يولِّد فكرةً أو يولِّد فكرًا أو أفكار أخرى تضيف معارف جديدة متطوّرة.

وعليه فالفكرة هي ناتج عمليَّة التفكير وهي مولود هذا النشاط الذّهني، ولكن هل بوسعنا القول أنَّ التفكير هو مقصور على التفكّر أم هو عمليَّة مركَّبة يمتزج فيها التذكّر والتفكّر والتدبّر؟

إنَّ رغبتنا في الحصول على صورةٍ واضحة المعالم عن شيءٍ ما وعن صفاته التي يتّصف بها أو خصائصه التي يترابط بها ويتفاعل مع الأشياء الأخرى قد يقتضي استدعاء واسترجاع بعض المعلومات والحقائق الجاهزة المحتوات في صفحات الماضي بغية الاستفادة منها واستقراء نتائجها لتوليد فكرةٍ مستقبليَّة نتطلّع بها إلى ما هو متوقّع وإلى ما هو غير متوقّع، ممّا يرشد إلى اتحاد كلٍّ من التذكّر والتفكّر في إنتاج الفكرة؛ ولذا فإنْ كان التذكّر مقتصرًا على استدعاء واسترجاع المعلومات والحقائق الكامنة في الماضي، فإنَّ التفكّر لا يهتم باستدعائها بقدر ما يتطلّع إلى ما هو متوقّع وغير متوقّع، وهذا لا يعني إلغاء الماضي، بل الاستفادة ممّا يُستنتج منه لتوليد أفكار مستقبليَّة، ففي الماضي تكمن المعلومات وتتراكم المعارف والخبرات التي تجعلنا في حالة تفكُّر؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[43]؛ ولذا فالأفكار في حالة امتزاج؛ حيث يُستقرأ بها الماضي، وبها يتمّ التطلّع إلى المستقبل فنقف على عتبات الماضي بالقدر الذي يزوّدنا بالخبرة التي تمكننا من استخدامها في التفكّر

[43]- الحشر 21.

وتوليد الجديد وفقًا لمنطق توليد الفكرة من الفكرة والمعلومة من المعلومة، وعليه:

لِمَ لا نفكّر أوّلًا كي نعرف عن تبيّن كيف نفكّر ثانيًا؟

أقول:

على الرّغم من أنَّ أصل كلّ شيءٍ فكرة، إلّا أنَّ حوار الفلاسفة ملئ بالتباين في تحديد مفهومها وإن أجمعوا على اتصالها المباشر بالتفكير انطلاقًا من تعريفها بأنَّها تصوّر ذهني؛ فالفكرة عند أفلاطون تفيد الماهيَّة أو المثال أو الشّيء بالذّات المفارق للمادّة، وفي المذهب التصوّري تصوّر ذهني، وفى المذهب الحسي صورة ذهنيَّة مستمدّة من العالم الخارجي، وعند الفيلسوف كانت هي تصور ذهني يتجاوز عالم الحسّ وما يماثله في هذا العالم المتغيّر والمتطوّر[44].

إذن: الفكرة هي تصوّر ذهني، وفي ذلك إشارة إلى العلاقة التي تربط بين الفكرة والعقل باعتباره المجال الذي تحدث فيه التصوّرات الذهنيَّة عن الأشياء أو الأشخاص، إلّا أنَّ العقل في اعتقادنا لا ينفرد بهذه العمليَّة (عمليَّة تكوين الفكرة)، لأنَّ اكتمال هيئة الفكرة يتمُّ بمشاركة بين العقل (كحاسة داخليَّة) والحواس الخارجيَّة؛ ولذا فالعلاقة بين العقل والحواس

[44] مراد وهبة، المعجم الفلســـفي. القاهرة: دار الثقافة الجديدة، الطبعة الثالثة، 1979، ص311-312.

هي علاقة اتّصال وترابط فلا مجال لاستقلال العقل عن الحواس أو تجاوزه لها أو سموه عنها؛ فالفكرة تحمل في ثناياها مفاهيم عديدة، ومفاهيمها تلك تختلف باختلاف المواقف؛ فعندما نقول على سبيل المثال: إنَّ فكرتنا عن الشّجرة هي أنّها كائن حي، مخضرّ، ينمو، يتنفس، يشرب، ويتغذى؛ فهذا الأمر يدّل على أنَّ الفكرة التي ارتسمت في الذّهن عن الشَّجرة مساوية لماهيَّة الشّجرة في الحقيقة، وعندما نقول أنّ فكرتنا عن شيء مستقبلي لم تكتمل ملامحه بعد هي كذا وكذا؛ فهذا يدلّ على أنَّ الفكرة هي شيء متخيّل في الذهن، وإذا اعتقدنا في إمكانيَّة أن يمنحنا كِتابٌ ما فكرةً جيدة عن حياة الهنود الحمر، فهذا يعني أنَّ للفكرة صورة يُمكن أن تُطبع في الذّهن، ممّا يجعلها قابلة للملاحظة قبل أن تكون في متناول المشاهدة، وهذه تجعل الصّورة سابقة على ما يجسّدها قبل الحدوث، فهيئة المقعد سابقة في الفكرة قبل تجسدها في شكله القابل للمشاهدة، وهيئة السكّين قابلة للملاحظة الذّهنيَّة قبل أن يتماثل السّكين للمشاهدة البصرية؛ ولذلك فالفكرة عن الشيء تصبح شيئًا بذاته عندما تتجسّد الفكرة في شكلٍ أو صورة، وهكذا الشّكل أو الصّورة دائمًا بين سابقٍ في الفكرة ولاحقًا بها؛ فمن حيث كونها سابقة فهي متجسّدة في الفكرة في ذهن وعقل المبدع، وكونها لاحقة من حيث التعرّف عليها أوّلًا، ثمَّ استدعاؤها ثانيًا بأسباب المعرفة الواعية.

وثمّة أنواع عديدة من الأفكار؛ فهناك الفكرة العارضة، وهي التي تقوم في الفكر بمناسبة حركات واردة على الحواس من الخارج، كاللون والطعم والصّوت والرّائحة، وهناك الفكرة الفطريَّة وهي ليست مستفادة من الأشياء ولا مركّبة بالإرادة، ولكن النّفس تستنبطها من ذاتها، وتمتاز بأنّها واضحة جليّة بسيطة، أمّا الفكرة المتسلّطة فهي ظاهرة ذهنية تقوم في استمرار حالة مرضية مسيطرة ولا يقدر فعل الإرادة على محوها، وهناك أخيرًا الفكرة المصنوعة وتلك نركّبها من الأفكار الحادثة، كهيئة ثعلب برأس دجاجة أو غزال برأس أرنب.

وفي كلِّ الحالات السّابقة فإنَّ نشوء الفكرة لا يظهر بمعزلٍ عن تفاعل الفرد مع البيئة التي تشكل له حاضنة، وسواءً أكانت الفكرة تتّسم بأنَّها عارضة أو متسلّطة أو مصنوعة، فإنّها تظهر ممّا يمكن أن تقتضيه الحياة البشريَّة بصفة عامّة؛ فالشّعور بأهميّة الشيء قد ينشئ فكرة، والإحساس بالمنفعة المادّيَّة أو الرّوحيَّة أو القلبيَّة أو المعنويَّة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع ينشئ الفكرة أيضًا، وكذلك الفكرة قد تظهر إبّان الشّعور بأنَّ شيئًا ما يمكن أن يشبع حاجة وأن يلبّيها أيا كان نوع هذه الحاجة مادّيَّة أم روحيَّة أم قلبيَّة أم معنويَّة؛ فطبيعة هذه الحاجات دائمًا تبحث عن مشبعات غير متساوية وبدرجات وميول ورغبات متفاوتة، ممّا يولّد في الذّهن جملةٌ من الأفكار التي يكون للسّلوك دورٌ في اختبار مدى فاعليتها، بحيث إذا لم يتمّ التحقّق من فاعلية فكرة معينة في

إشباع الحاجة كان ذلك مبعثًا على التفكير مرّةً أخرى وتوليد أفكارٍ جديدة؛ فالأنا كونه مفردة بشريَّة إذا لم يفكّر لن يتمكّن من الامتداد خارج حدود الأنا، ومتى تفكّر يستطيع أن يعرف، وعندما يعرف يستطيع أن يتجاوز حدوده مع الآخرين في فسحة (نحن) التي تترتّب عليها فكرة أخرى من حيث:

. هل نحن سويًّا في إدارة الأمر المشترك؟

. هل نحن متساوون في ممارسة الحقوق؟

. هل نحن متساوون في أداء الواجبات؟

. هل نحن متساوون في حمْل المسؤوليَّات؟

. هل الأمر بيننا على الديمقراطيَّة ولكلّ خصوصيّته التي بها يتميّز من حيث المهنة والخبرة والمهارة والدّور والتخصّص والاختصاص؟ أم أنَّ الأمر غير ذلك في دائرة غير المتوقّع؟

هذه التساؤلات لابدّ أن تترتّب عليها قيم وأفعال في دائرة المتوقّع، تكون هذه القيم والأفعال بين المتوقّع الموجب والمتوقّع السّالب ومنها:

أوّلًا: قيم وأفعال المتوقّع الموجب:

1. الاعتراف.

2 . التقدير.

3 . الاحترام.

4 . الاعتبار.

5 . التعاون.

6 . التوافق.

7 . الانسجام.

8 . الاستيعاب.

9 . تفهّم الظروف الخاصّة.

10 . غرس الثّقة.

هذه القيم الحميدة والأفعال الموجبة تترتّب عليها سيادة قيم وأفعال التوافق والتماسك والصّدق والوفاء التي من شأنها أن تؤدّي إلى السَّكينة والطمأنينة وإحقاق الحقّ.

ثانيًا: قيم وأفعال المتوقّع السّالب:

1 . الظلم.

2 . القهر.

3 . التعصّب.

4 . المغالبة.

5 . التغييب.

6 . الإقصاء.

7 . الاختلاف.

8 . الصدام.

9 . الهيمنة.

10 . الاقتتال.

هذه القيم والأفعال السّالبة تترتّب عليها قيم وأفعال الكُره والبغض والحقد والكيد والمكر التي بدورها تؤدّي إلى كلّ ما من شأنه أنْ يؤدّي إلى شدّة الخوف بأسباب ارتكاب الباطلِ والإفساد في الأرض، ولكن في دائرة الممكن كلّما اشتدّ الإنسان خوفًا تخلّص من الجبن الذي يكبّل إرادته؛ فالتخويف المستمر لابدّ أن يؤدّي إلى التحرّر من الخوف المكبّل للإرادة والحرّية، أمّا ذلك الخوف الذي يصنع المستقبل هو الخوف الإرادي الذي لا يتمّ إلّا عن وعي، ممّا يجعل التدبّر والتذكّر والتفكّر ضرورة للخائف لأجل أن يدرك ما يجب ويقدم على أدائه دون تردّد وقبل أن يفوت الأوان.

فالخوف استشعار للمستقبل واستطلاع لِما قد يَحلّ به وقد يؤثّر تأثيرًا سالبًا على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتّى لا يحدث

تُبْذل الجهود من قِبل مستشعريه وقاية منه أو استبدالًا له، أو استغناء عنه في دائرة الممكن.

ومع أنَّ معظم معلومات العامّة من النّاس عن الخوف هي معلومات عن سالبٍ، فإنَّ حقيقة أمره لا تربطه بسالبٍ؛ فالعامّة على سبيل المثال: يخافون من الظلمة، ولكن هل يوجد شيء من مكوّنات الظلمة يخيف؟

ولذا فالعلاقة قويّة بين الخوف والتدبُّر، وبينه والتفكّر، والتذكّر، فالإنسان يتدبّر حاله في الزّمن الآن من أجل أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكّر، ويتذكّر الماضي لكي يتدبّر حاضره عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يَقدِم عليه في مستقبله، أمّا التفكّر فلا يكون إلّا في كلّ ما من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل حتى وإن كان فيه ما فيه من الضرورة التي تستوجب معرفة الماضي؛ كي لا تتكرر الأمور أكثر من مرّة.

وكما أنَّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكّر والتذكّر؛ فكذلك هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقّع (تخيّل ليس إلّا)، أمَّا الخوف فلا وجود له إلّا مع واقع، ولهذا فالفرق كبير بين متخيلات الوهم وبين ما يكشفه الخوف حقيقة؛ فالآباء في كثيرٍ من الأحيان يرسمون صور وهميّة في أذهان أبنائهم عن المجهول بالنسبة إليهم؛ وذلك بغرض السيطرة عليهم وجعلهم تابعين؛

فالغول الذي ليس له صورة لعدم وجوده حقيقة، صورته لم تمحَ من أذهان الكثيرين من أبناء العالم المتخلّف.

ولأنَّ للخوف علاقة وثيقة مع المستقبل؛ فالنَّاس تخاف من مفاجِئات الزلازل؛ فتسعى في البحث لأجل أن تتمكّن من المعرفة العلميَّة التي تكشف مؤشّرات الزلازل قبل وقوعها تفاديًا لِما قد تحدثه من كوارث؛ ولذا فالمهندسون وخاصّة المعماريون هم دائمًا يبحثون عن كيفيَّة إيجاد تصميم معماري يُسهم في تفادي الهزّات الأرضيَّة أو الحدّ ممّا تؤدّي إليه من أضرار.

ولأنَّ الخوف فطري؛ فكلّ المخلوقات الحيوانيَّة حالها كحال الإنسان تخاف فطرةً لا تعلّمًا؛ فالخروف بدون شكّ يخاف الذّئب، والذّئب يخاف الكلب، والكلب يخاف صاحبه ولا يخاف أعداءه، وهكذا الدّجاج يخاف الثّعالب، والثّعالب تخاف الصيَّادين، ولكن دون تدبّر؛ فكلّ سلوك حيواني يكون الحسم فيه أثناء المواجهة للأقوى، ممّا يجعل للمفاجئة مكانة في إلحاق المغالبة بين حيوانًا وآخر.

والفرق بين الخوف على المستوى العاقل والمستوى الحيواني هو أنَّ الإنسان يخاف فيفكّر ويتدبّر أمره مسبقًا من أجل أن يتفادى المخاطر المقدّرة تقديرًا بحسبان؛ فالمسلم يعلم أنَّ أمامه مستقبل بين (سكينة وألم) وله أن يختار إرادة (جنّةً أم نارًا) ولهذا فالمؤمن في حياته الدّنيا يتّقي الشّرور ويبتعد عن ارتكاب المظالم خوفًا من النّار وحبًّا في الجنّة، ولهذا فهو يُصلّي

ويُزكّي ويصوم ويتّبع أمر الله ونهيه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسعى للإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، أمَّا غيره من بني جنسه (الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم)؛ فهم غافلون، ولهذا لم يعملوا على صناعة مستقبلهم وهم في الحياة الدنيا؛ ولذا فالخوف تفادٍ للفعل المؤلم سواء أكان هذا الفعل في الحياة الدنيا أم أنّه عندما يكون مترتّبًا عقابًا في الحياة الآخرة على ما لم يُفعل في الحياة الدنيا أو أنّه فُعل عن غير طاعة لما يجب أن يُفعل إرادة.

ولأنَّ الخوف يُجنّب الألم؛ فالواعون دائمًا يتجنّبون لحظة الغضب بحكمة وتدبّر، بغرض إضاعة الفرصة على الغاضب وإعادته لرشده؛ ولذا فإنْ لم يتمّ تفادي الغضب لحظته تحدث المواجهة المؤلمة؛ فتتأزّم الأمور ويتصدّع البناء الأسري أو العشائري، أو أيّ بناء اجتماعي وإنساني على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الدّول.

وهكذا العالم المتقدّم دائمًا في دائرة الممكن يَقدم على كلِّ شيء يمكن أن يُسهم في صناعة المستقبل الأفضل؛ فبالنّسبة إليه كلّ شيء بحسابه؛ ولذا كلّ يوم نلاحظ أسعار النّفط والذّهب والفضة والعملات وأسعار الأسهم وما شابهها اقتصاديًّا تتغيّر وتتبدّل قيمها أحيانًا بتعديل رؤية في سياسة منظّمة الأوبك، أو تصريح من رئيسها، أو تصريح من أيّ رئيس له أثر فعّال على السّاحة العالميَّة، أو إذا وقعت كارثة طبيعيَّة أو غير طبيعيَّة من حروب أو حتّى تهديدات باردة ترتفع بأسبابها أحيانًا

جميع الأسعار عقاريّة وماليَّة وذهبيَّة ونفطيَّة وفضيَّة وغيرها، وكلّ ذلك بأسباب الخوف التي تجعل الكلّ يفكّر بغاية أخذ الحذر الذي به يتمكّن الإنسان من تأمين مستقبله.

ولأنَّ الخوف يثير العقل تفكّرًا وتذكُّرًا وتدبّرًا؛ لأجل أنْ يقتنص الفكرة التي فيها يكمن الحلّ؛ لذا لن يكون الخوف آمنًا إلّا في الفكرة المقتنصة حلًّا.

ومن ثمَّ فالفكرة تحملها الكلمة بين مرسلٍ ومستقبلٍ، وهي تحمل قضيّة تقدِّم حلًّا يُخرج من التأزّمات أو يُدخل فيها؛ فكثير من الأسوياء والعلماء والمفكّرين العظام يَجدّون في إنتاج الفكرة التي تحمل حلًّا يُخرج من التأزُّمات، والبعض الآخر يكيد أو يمكر أو يحسد ظلمًا؛ فيُسخِّرون فكرهم وما يمتلكون أحيانًا من أجل إشعال نار فتنة يعتبرونها حلًّا.

وفي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع الفكرة تتعرّض لمواجهة الفكرة، ممّا يجعل نيران الاقتتال والفتنة كلّما انطفأت اشتعلت من جديد وعلى وجه السُّرعة؛ فالوطن عندما لا يكون الرّأي فيه مؤسّسًا على فكرة حلّ التأزّمات لا يمكن أن يأمن مواطنوه. وإن لم يشتدّ الخوف في نفوسهم على مستقبل أبنائهم ووطنهم وحرّيّتهم فلن يبلغوا حلًّا يجمع شتات أبناء الأمّة إرادة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليَّات الوطنيَّة سياسةً واقتصادًا واجتماعًا؛ فالخوف إن لم يوفّر نِعَمٌ كثيرة؛ فإنّه يحافظ على ما هو متوفّر من النّعم لدى الإنسان على الأقلّ.

ولذا يؤدّي الخوف إلى تغيير الأفكار والمواقف من حالة السّلب إلى حالة الإيجاب، وهو يربط العلاقة الآنيَّة مع المستقبل؛ إذ أنّه في اللحظة الآنيّة يُعدُّ شعورًا سالبًا تجاه المستقبل، ومن هنا يكون للخوف علاقة مباشرة باليقظة والفطنة والحذر؛ فهو ناقوس يدقّ في عقل الإنسان كلّما كان هناك استقراء للمستقبل؛ فهو استطلاع مستقبلي للمخاطر التي ينبّه عليها الخوف قبل أن تأتي، ممّا يجعل الإنسان يفكّر في إيجاد موانع وحواجز تدفع المخاطر المستقبليَّة وتمنع وقوعها، وبهذا تكون عاطفة الخوف قد دفعت بالعقل إلى البحث عن الأسباب التي يمكن أن تحقِّق ما يُمكّنه من التطلّع إلى الأفضل.

إذن: الخوف شعور متحقّق لدى الإنسان لا نقول إنّه ينتابه عند استشعار المخاطر، وإنّما عند استشعار المخاطر يخرج من مكمنه في النَّفس الإنسانيَّة كجزء من العاطفة؛ فالإنسان كونه مفكّرًا هو في دائرة الممكن من يفكِّر في وجوده، ومن كان وراء وجوده، ومن هو وليًّا على أمره، وكيف له أنْ يفكّر فيما يفكِّر فيه وليّ أمره تجاهه لكي يعرف كيف يفكّر.

ولذا فإنَّ تفكير الإنسان في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع ينضوي على قدر من الخطأ أو الشكّ أو التناقض والغموض، ومن ثمَّ تتّسم الأفكار التي أوجدها هذا التفكير بنفس هذه السِّمات؛ فهي أفكار تحاول الاقتراب من الحقيقة ومعرفتها، لكنَّها قد لا تصل إليها، ومع ذلك فهي تسعى والأمل لا يفارقها، وفي دائرة المتوقّع وغير المتوقّع يعرفها الإنسان

ويدركها بقدر ما أوتي من قدرات ذهنيَّة؛ ليغوص فيها ويتأمّل في علل وجودها، مع إعجازه عن معرفة المبرّرات، وقد يتدرّج الإنسان في تفكيره ويصل إلى أعلى المراتب التي فيها نهاية الفكرة[45].

حُسنُ التفكير صُنع أمل:

حُسنُ التفكير صُنع أملٌ؛ كونه استشعار الحيوية والمقدرة؛ ثمَّ كونه قابل لأن يتمدّد قوّة تجاه المأمول رغبة وإرادة، ومع ذلك فالأمل لم يكن قالبًا جاهزًا، بل مولود تلك الحيرة التي تحول في العقل وتستفزّه تفكيرًا وبحثًا عمّا يجب حتى يَرشُدَ معرفة تقتنص مأمولا، يستوجب جهدا يبذل لنيله.

ومن ثمّ فالأمل لا يصنع إلّا والحيرة تسبقه تفكيرًا وبحثًا وتدبّرًا؛ حتى تنجلي غيوم الذّهن والنَّفس فكرة ترشد لما يفكّ التأزمات ويخلّص من القلق ويمكّن من العمل المنقذ ممّا يخيف ويؤلم.

ولأنّ الفكرة أملا مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه، ولّدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

---

[45] عقيل حسين عقيل، من الفكر إلى الفكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2017م، ص 127 – 136.

ومع أنَّ الفكرة تخلّص من الحيرة، فإنّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدها؛ فالحيرة بالنّسبة للفكرة تعد مخاض ولادة، وولادة الفكرة بدون حيرة تسبقها، هي: ولادة قسريَّة؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتلد مشوّهة، وبالتالي ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاء.

ومع أنَّ هذا الأمر يعد سالبًا بالنّسبة إلى الفكرة ارتقاء، فإنّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابًا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تخرج من التأزّم.

ومع أنَّ زمن الحيرة الفكريَّة مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، فإنّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس، وما يسرّ الغير ارتقاء؛ ولذلك فالبحوث العلميَّة ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّزّ على حيرة جديدة من بعدها محيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع.

إذن: فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يُقتنص له حلّ، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشيء استحالة أو إعجازًا أو ممكننًا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له أملًا وحلًّا.

وهذا لا يعني: أن تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها مأمول، ولكن هذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدّي المقلق بما يُقلقه، حتى

يصبح القلق بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي لا يمكن أن يصلوا إلى غاية الارتقاء إلّا بعد الحيرة، ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة تحدٍّ؛ فلا إمكانية لأن يُكتب له التحدّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة.

فالحيرة العلميَّة لا تواجه إلا الجادّين، ولهذا ينبغي أن نعرف أنّ الحيرة درجة متقدّمة من التفكير العلمي الذي ينبغي على الباحث تقبُّله وعدم الحياد عنه إلى أن يصل بتفكيره المنظّم إلى الانتباه الذي يقوده إلى الاختيار واتخاذ القرار عن وعي وإرادة ويقين حيث لا خروج من الحيرة العلميَّة إلَّا بتحديد موضوع البحث الذي تمحور على إشكاليَّة لا مفرّ من البحث فيها إن أردنا بلوغ المأمول ونيله.

وكما أنَّ الحيرة يقظة عقليَّة تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعد معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته التي تتحفّز إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها، ومن هنا، بدأت مواجهة العقل للصّعب تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يقدِّم التنازل من بعد التنازل.

فالصّعب ليس بالمستحيل ولا المعجز، حتى يستحال تحدّيه، بل ميادين تحدي الصّعب فسيحة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع وبخاصّة من الآملين، فهم لا يخافون مواجهة الصّعب، بل الخوف بالنسبة إليهم ألَّا تحدث المواجهة معه؛ فالمواجهة العقليَّة معه كلّما حدثت عن تدبّر

فكرة، أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاء، ولذا ستظل الفكرة عقليَّة إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشّكل أو الصّورة، أو المفهوم والدّلالة والمعنى، والتجسّد سلوكًا.

ومع أنَّ العقل مكمن الفكرة، فإنّه أيضًا منبع الأمل، ومع أنَّهما معًا من إعمال العقل وفي محفظته، إلَّا أنَّ الأمل يتعلّق بالغايات الخارجيَّة، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرًا وإرادةً؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار الممكّن من التدبّر وحمْل المسؤوليَّة، ومن لا يمتلكها، فإشارة قف لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء؛ ولذلك وراء كلّ غاية مأمول.

ولأنّه الأمل صنعًا؛ فهو لم يكن معجزًا ولا مستحيلًا، ولأنّه لم يكن كذلك، فَلِمَ لا يُصنع! أي: لا استغراب من صنع الأمل، بل الاستغراب ألا يتم الإقدام على صنعه. وصنع الأمل يستوجب:

- إرادة.
- تحدّ.
- مقدرة.
- تخطيط.
- إعداد عدّة.
- صبر.

. إمكانات.

. عزيمة.

. إدارة زمن.

إذن: الأمل لا يُمنح من أحدٍ، فلا داعٍ للانتظار، أو حتى للالتفات، فمن أراد أملًا فعليه بعقله دون الاتكاء على عقول الغير؛ فالغير يمكن أن يعطوك رأيًا أو يقدّموا لك رؤيةً، ولكنّهم لن يعطوك أملًا حتى وإن أرشدوك إلى مستقبل يرونه أفضل؛ فلا تعتمد على أصابع الغير في حكّ جلدك.

الأمل تستفزّه الحاجة المدخلة للحيرة التي فيها يجد العقل نشاطه الفكري كلّما وجد الصّبر في النّفس مكانة، ولكن أن رفضته النَّفس قلقًا، فلا إمكانيَّة لصناعة الأمل. وفي المقابل كلّما وثقت النَّفس في حيرة العقل فكرًا، وجد الأمل مكانًا يتربّع عليه؛ ولذلك تعد القلوب الصافية والنفوس الصافية أماكن ولادة الأمل تيسيرًا، أمّا أولئك الذين ضاقت نفوسهم حقدًا ومكرًا وكيدًا وحسدًا؛ فلا إمكانيَّة لديهم تصنع أملًا.

الأمل لا تصنعه الصُّدف، بل القصد وحده قادر على صنعه، فلم لا نتوجّه لصنع الأمل بما أنّ غيرنا قد صنعوا آمالًا؟

ولهذا فصناعة الأمل تتطلّب:

. وضوح المأمول.

. مثابرة جادة.

. مكاشفة النَّفس.

. بذل الجهد.

. قبول دفع الثّمن.

. الاستعانة بأهل الحكمة والدّراية.

. أخذ العبر من التَّاريخ.

. الدِّراية بما يجب قبل الإقدام على ما يجب.

وعليه:

. فكّر فيما تفكّر فيه؛ حتى يصبح أملًا يشبع رغبة مرضية ولا تكون على حساب الغير.

. جمّع قواك العقليَّة والفكريَّة وخطّط بما يمكّنك من تفادي الصّعاب وأنت تعمل من أجل بلوغ المأمول.

. حشّد الإمكانات وعدّ العدّة المناسبة لبلوغ المأمول.

. انزع التردّد من نفسك وتقدّم قوّة تصنع المستقبل المأمول قمّة.

. استعن بمن يمدّك قوّة تُسهم في اختصار الزّمن وتقليل الخسائر.

. اعرف أنّك كلّما أنجزت هدفًا، وجب عليك تحديد أهداف أخرى أكثر أهميَّة، حتى تحدث النُّقلة إلى الأفضل المرتقب.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكن؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وأن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء؛ ولذلك فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقّع.

وعليه فصُنع الأمل ارتقاء يستوجب:

. دفع أفراد المجتمع إلى العمل المنتج الذي يُمكِّنهم من الوفرة التي تُسهِم في إشباع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة؛ ليعيشوا حياة تعليمية وصحية واقتصادية مرضية.

. دفع الأفراد إلى ميادين العمل المنتج التي فيها يتمكّنون من إشباع حاجاتهم للمشرب والمأكل والملبس والتنقّل، وإلا سيظلون في عازه ممّا يجعلهم بعيدين عن محققات الرّفاهية الاجتماعية وصنع المستقبل ارتقاء.

. تفطين أفراد المجتمع إلى ما يؤدّي إلى إشباع الحاجات الضّروريَّة، وإلى ما يؤدّي من بعدها إلى إشباع الحاجات الكماليّة المتطوِّرة.

. دفع أفراد المجتمع إلى زيادة الإنتاج حيث الحاجات المتطوّرة التي تبحث عن مشبعات غير ثابتة، فما كان لا يعد حاجة ضرورية في الزّمن الماضي أصبح من الأولويَّات في هذا العصر، وهكذا هي الحاجات تتطوّر عبر العصور وستظل دائمًا على هذه المنوال ارتقاء.

. تفطين مؤسّسات المجتمع الخدميَّة والإنتاجيَّة وهيئاته وشركاته؛ لاستيعاب أفكار العاملين والمتعلمين والاستجابة لمطالبهم المتطوّرة ورغباتهم المتنوّعة مع حركة التغير والتطوّر.

. تنظيم العلاقة بين رغبات العملاء وبين ظروفهم الاجتماعيَّة والاقتصادية، التي قد لا تمكِّنهم من بلوغ مشبعات رغباتهم ما لم يستثمروا كلّ ما لديهم من طاقات مع مضاعفة الجهد المبذول تجاه محقّقاتها.

. تفطين الأفراد من انغلاقهم داخل دائرة الذّات الاجتماعية إلى الانفتاح على الآخرين والتعرّف على ما يمتلكونه من منافع وعلوم وتقنية وتعلمها والأخذ بأسبابها.

. تنمية روح الطموح والتّجدّد لدي أفراد المجتمع حتى يتطلّعوا إلى صناعة المستقبل الذي يمدّهم بأسباب بناء الذّات ودخولها ميادين المنافسة والإنتاج العلمي والبناء الحضاري.

. ترشيد الأفراد بما يؤدّي بهم إلى تنظيم حياتهم وتقدير ظروفهم في ضوء الظّروف المحيطة والمتطوِّرة؛ ليكوِّنوا علاقات موجبة معها، حتى يتمكّنوا من مواكبة حركة التطوّر والتغير الإنساني في القرية الصّغيرة.

. استيعاب المتغيّرات الجديدة التي جعلت من العالم قرية صغيرة والترابط مع شبكاتها المعلوماتية لأخذ المزيد المعرفي من أجل تحقيق حياة إنسانية شاملة.

. تفطين أفراد المجتمع إلى أخذ ما هو نافع وترك ما هو غير نافع، فالقرية الصّغيرة مملوءة بالجديد النّافع والجديد غير النّافع؛ فيجب التمييز قبل الإقدام.

. عدم الإغفال عن حقيقة مفادها (أنَّ الحياة بطبيعتها في حالة تطوّر) فلا داعي للغفلة.

. تفطين الأفراد إلى استثمار ما لديهم من إمكانات وطاقات والتطلّع إلى ما يفيد من قِبل الآخرين حتى يتمكِنوا من العيش برفاهية واستجمام.

. حث أفراد المجتمع على التطلّع لأخذ المفيد للحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة، والإسراع بهم إلى أخذ المزيد وتطويره.

. دفع الأفراد لمواكبة حاجاتهم المتطوِّرة، وعدم التأخر عن ممارسة ما من شأنه أن يُعجِّل من طي المسافات بين النقطة التي هم عليها، ومحققات النقطة قمّة.

. التأكيد على أهميَّة بلوغ الجديد المفيد الذي يُعزز ثقة الأفراد بأنفسهم وبذواتهم الاجتماعيَّة ويحقّق لهم أبعاد إنسانيَّة في المجالات الاقتصاديَّة والسياسيَّة والنفسيَّة والذّوقيَّة والثَّقافيَّة.

. تحريض مؤسّسات المجتمع على اختيار المعروض الأجود، ممّا وصل إليه التقدّم العلمي والتقني، والإقدام على تطويره؛ فالقوّة المبدعة في العالم لن تنتظر وستواصل التقدّم والتطوّر؛ فعلى مؤسّسات المجتمع وهيئاته وشركاته دخول ميادين السّباق العلمي وإلّا سيظل المجتمع قعيدا في مؤسّسات الرّعاية الاجتماعيَّة؛ ذلك لأنَّ إشباع الحاجات ضرورة إنسانيَّة، ولأنّ إشباع الحاجات ضرورة إنسانيَّة، تأسست هيئات وجمعيات ومؤسّسات دوليَّة إنسانيَّة لتقديم المساعدة لمن هم في حاجة إليها، سواء دول بحالها أم جماعات منها.

ومع أنَّ النّاس يأملون المستقبل الأجود والأفيد، فإنَّ القليل منهم هم الذين يحملون أعباء بلوغه، أي إنّ البعض يعمل على صُنعه والبعض ينتظره زمنًا، فالذي يعمل على صُنعه يأتي إليه، أمَّا أولئك المنتظرون سيظل الزّمن أمامهم مستقبلًا وهم يتمنّون، ولهذا فالفرق كبير بين من يأمل ويعمل على بلوغ مأموله، ومن يتمنى فيبقى في أمانيه ساكنًا.

النّاس كلّ النّاس هم بين مأمولٍ ومتمنٍ، ولهذا فهم مختلفون وسيظلون كذلك؛ فالذين يأملون يعملون ويسعون إلى معرفة وإنجاز المزيد، والذين يتمنون سيظلون يتمنون.

صُنع المستقبل المأمول رفعة يؤسّس لوطن فيه المواطنون يسودون دون سيادة مظالم، الرّجل والمرأة والصّغير والكبير هم رأس مال الوطن، ممّا يجعل ثروة الوطن ملك للجميع، والتعليم حقّ للجميع، والصّحة حقّ للجميع، والخدمات المتميّزة حقّ للجميع، والأمن حقّ للجميع، وأداء الواجبات حقّ على الجميع، وحمل المسؤوليّة عبء يحمله الجميع، وكلّ وفق قدراته واستعداداته ومهاراته وتخصّصه وتأهيله وصلاحيّاته واختصاصاته، مع تقديم أفضل رعاية للمعاقين والعجزة والمرضى وإعالة ورعاية من لا عائل لهم ولا راعٍ.

فالآمل لا يرى الحكومة والمجتمع المدني إلّا في حالة شراكة؛ فكلّ واحد ييسّر للآخر أعماله وكلّ واحد يقوم بمهمّة المراقبة على الآخر، ممّا يجعل ممارسة الحرّيَّة بأسلوب ديمقراطي ماثلة بين يدي النّاس يمارسونها بكلّ شفافيَّة، مع وافر الرّقابة المتبادلة بين مكوّنات المجتمع المدني والحكومة التي يتمّ اختيارها خبرة ودراية ومهنة وتخصّصًا ومكانة اجتماعيَّة وإنسانيَّة رائدة، وكلّ ذلك لا يتمّ إلّا تحت مظلّة الدّستور وما يتفرّع منه من قوانين ونظم مشرّعة، ولهذا لا داعي أن تضع الحكومة نفسها في كلّ مكان، فإن ارتأت ذلك؛ فلن تجد لها مكانًا، وإن فرضت نفسها بغير إرادة أهل الأرض سترهق أجهزتها الأمنية وإن كثرت.

ومن ثمّ عندما يصبح أهل الأرض (الشّعب) شركاء في إدارة الدّولة دستورًا سينتهي ذلك الدور الأمني (الشّك في الموطنين) ويحلّ محلّه دور

جديد (لا ثقة إلّا في الشّعب) وبالتالي لن يكون دورها مطاردة المنحرفين لمعاقبتهم، بل دورها جمعهم من أجل الإصلاح، ثمّ غرس الأمل في نفوسهم من أجل مستقبلٍ أفضل، وهكذا سيكون دور رجال البوليس احترام المواطنين وتقدير ظروفهم وتفهُّم أحوالهم، أي: العمل بشكل وثيق مع المواطنين لتحسين مستويات الجماعة المحليَّة والسّلوك المدني واستخدام الثّقافة والاقتناع والتشاور بدلًا من توجيه الاتّهامات بغير حقّ؛ ولذلك تسنّ القوانين التي ترشد إلى ما يجب، وتنهى وتحذِّر وتحرّم ما لا يجب، ثم تعاقب دون مظالم، ومن هنا تصبح تقويّة القانون ضرورة من أجل ممارسة الحرّيَّة وبكلّ شفافيَّة. فعندما يصبح المواطن صاحب سيادة في وطنه فلا إمكانيَّة لوجود متطرّفين ومرهبين بين الشَّعب؛ ذلك لأنَّ عيون الشَّعب كلّها رقابة.

ولأجل التغيير من حالة التّعاسة إلى حالة الرّفاهيَّة ينبغي ألّا يكون التركيز على تقديم المساعدات؛ فالاستمرار في تقديمها يجعل الاتكال والاستمرار في طلبها مستمرًّا، ولهذا وجب غرس الآمال في عقول النَّاس ودفعهم إلى العمل وتحفيزهم عليه.

وعليه فإنَّ حُسنُ التفكير يدلّ على وضوح الرُّؤية ونقاء العقل وصفاء النَّفس، مع وضوح الأهداف والمقاصد المأمولة؛ ولذا فتوليد الأمل هو توليد الشّيء من الشّيء، ولهذا فمن المفيد أن تنظر إلى أولئك الذين سبقوك أملًا وارتقاءً، ومن المفيد أن تضطّلع على تجارب الآخرين، ومن

المفيد أن تشترك مع الغير في توليد الآمال، ومن المفيد أن تسأل أصحاب الحكمة، ومن المفيد ألّا تستقر على روتينٍ قد تجاوزه الزّمن، ومن المفيد أن تتطلّع لأيّ شيء مفيد.

ولأنَّ توليد الأمل هو توليد الشيء من الشيء، إذن: فلا استحالة، مع العلم أنَّ الأشياء وفرة في كلّ مكان، ولِمَ لا تصنع من الشّجرة بابًا؟ ولِمَ لا تصنع من القطن ملبسًا؟ ولِمَ لا تفكّر فيما تفكّر فيه قبل قوله؟ ولِمَ لا تقيّم نفسك عند كلّ قصور؟ ولِمَ لا تفكّر في تطوير أساليب العمل الذي جعل منك روتين ولا تجديد؟ ولِمَ لا تتحدّى نفسك قبل أن يتحداك الغير؟ وعليك أن تعرف أنّ كلّ شيء يتجّدد ويتطوّر ويتولّد فلا تغفل أكثر ممّا غفلته. وعليك أن تنظر إلى الكون وكيف يتمدّد ويتسع ويتسارع توليدًا. فقد خلق الله تعالى الكون والأرض لم تكن إلّا جزءا منه، وأنبت آدم وزوجه من الأرض نباتًا (توليدًا).

ولذلك فتوليد الشيء من الشيء بين نشوء وصنعة؛ فالشيء لا يكون إلّا خلقًا، أمّا توليد الشيء من الشيء فلا يكون إلّا نشوء، وكل هذا بيد الله تعالى، أمّا الذي بين يدينا إن عملنا استطعنا أن نولّد من الشيء شيئًا.

ولأنّ النّشوء لا يكون إلّا من شيءٍ، كانت الأرض وكان نشوؤنا منها، ولو لم يكن اللاشيء، ما كانت الأرض شيئًا منه، ولو لم يكن الانفجار العظيم ما كان اللاشيء شيئًا، ولو لم تكن تلك الذّرة، ما كان

ذلك الانفجار العظيم، ولو لم يكن الخالق ما خُلق شيء قال تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[46].

ومع أنَّ الله خلق كلّ شيء وهو الخلّاق لما يشاء، متى ما يشاء، كيفما يشاء، وأينما يشاء، فإنَّ البشر لا يعلمون كلّ ما خُلق؛ فهناك ما يعلمونه خبرًا، وهناك ما يأخذونه أمرًا ونهيًا، وهناك ما يدركونه عقلًا، وهناك ما يرونه مشاهدة؛ فالبشر كما يسلّمون يقينًا بما يعلمونه؛ فهم يؤمنون يقينًا غيبيًّا بما يجهلونه؛ فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بالسّاعة، ولكنّهم يجهلون ساعتها، ويعلمون بالنّعيم ويجهلون نعمه، ويعلمون أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقا، ويجهلون كيفية فتقها.

ومع أنَّ النّشوء مترتّب وجودًا على ما خلق، فإنّه لا يكون إلّا وفقًا للمشيئة، التي هي دائمًا سابقة على الشيء، أي: لا شيء ينشأ ويُخلق إلّا من مشيئة الخالق. ومشيئة المشيء إرادة خَلقيَّة، خَلقت تلك الذّرة، وفجّرتها خلقا آخر؛ ولذلك فَخَلق الشيء من الشيء وجَعلهِ على الهيئة والصّفة يعد نشوءًا من مشيئة الخالق.

ولذلك فالعقل المتأمّل في الوجود الخلقي يدرك إنّ وراء كلّ شيء مشيء له؛ فلو لم يشئه ما كان شيئًا، وبما أنّه أصبح شيئًا؛ فهو لم يكن إلّا وفق مشيئة، وهذه تستوجب: مقدرة خلقيّة، وخالق يهيئ المخلوق

[46] المائدة 17.

للخلق قبل أن يخلقه، ومن ثمّ فلا شيء إلّا من مشيء: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}[47].

ولأنَّ خلق الشيءِ من الشيء يعد نشوءًا، إذن؛ فلا نشوء إلّا والحياة تملؤه؛ فالأرض لو لم تكن على الحياة، ما كان ترابها صالحا لخلق الإنسان، وإنباته مثل النبات نباتًا. إنّه النّبات الذي من بعده لا تخلق الكائنات من الكائنات إلّا تزاوجًا.

ولذلك كان الخَلق أوّلًا، ثمّ جاء النّشوء مترتّب عليه، ومن بعده جاء خلق الأزواج من طين، ثمّ جاء خلق التزاوج من نطفة؛ فكان التكاثر على التسيير فيما لا شأن للإنسان به، وكان التخيير وفقًا للإرادة والرّغبة التي تمتدّ بين شهوة عاطفيَّة، وبين خُلقٍ وحُسن تدبّر وضبط ضمير.

ولأنَّ الكون لا يخرج عن كونه شيئًا؛ فالشيء لا يمكن أن يكون إلّا مخلوقًا. ولأنّه المخلوق؛ فلا يمكن أن يكون خالقًا؛ فالخالق (لا يكون شيئًا، ولا يكون لا شيئًا، ولا يكون شيئًا آخر)، بل هو الخالق، الذي يَخلق ولا يُخلق.

وعليه فإنَّ الأشياء المخلوقة لابدّ وأن تتولّد من بعضها البعض، وتتناسل من بعضها البعض بقوّة خارجة عنها، انطلاقًا من أنَّ (المخلوق لا يمكن أن يخلق نفسه) ومن ثم فإنَّ تتبّع استمداد الشيء من الشيء المستمدّ منه، أو المخلوق من المخلوق منه يعد الطريق العلمي الممكّن من

[47] الأنعام 80.

معرفة الخالق عن بيّنة وعلم تامّ، وهو الممكن من توليد الشيء من الشيء، فَلِمَ لا ننظر ونستطلع ونستقرأ ونتطلّع ثمّ نعمل؟

لقد بيّن الله لنا الشيء خلقًا، ثمّ نشوءًا (خلق من خلق) أي: خلق الشيء من الشيء؛ وذلك ليبيّن لنا آياته إعجازًا، ثمّ ليفسح أمامنا إمكانيَّة توليد الشيء من الشيء أملًا؛ فعمل أصحاب العقول ما عملوا توليدًا (تكاثرًا) دون أن يخلقوا شيئًا؛ لأنَّ الخلق استحالة بالنسبة إلينا؛ لأنّه فعل الخالق: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[48]، أمّا توليد الشيء من الشيء فهو الممكن، فتولّد الفكرة من الفكرة أملًا يصنع مستقبلًا قبل أن يأتي إلينا.

ولأنَّ الخالق جعل الجنّة مأمولة للمؤمنين، فكان عليهم العمل من أجل بلوغها؛ مصداقًا لقوله تعالى: {أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[49]، أي لا جنّة بلا عمل، وهذا يعني لا عمل بلا أمل؛ فمن كان له أملًا، عمل

[48] يس 82.

[49] الواقعة 11 . 24.

عليه، ومن لم يولّد أمل في نفسه وعقله فلا مأمول له؛ ممّا يجعل وجوده عبئًا على نفسه وعلى الغير.

فالله تعالى جعل لنا مأمولًا عظيمًا (الجنة)، ويودّ أن تكون لنا فيه مكانة، فقال: {وَقُلِ اعملوا}[50]، أي اعملوا حتى تولّد لكم آمال تمكّنكم من بلوغ الجنة والفوز بها؛ فهو كمن يقول: إنّها تنتظركم فلا تتأخروا عنها؛ فاعملوا كلّ ما من شأنه أن يمكّنكم من الرّشد والغنى والمتعة والرَّفاهيّة والسّلام والأمن، فهذه إن كانت في مرضاة الله تقرّبكم من أبواب الجنَّة، أي: وكأنّه يقول: تجنّبوا ما يؤدّي بكم إلى الألم والفقر؛ فالألم لا مكان له في الجنَّة، والفقر لا مكان له في الجنّة، ومن يعيشهما إرادة فهو كمن يتمنّع عن الاقتراب من أبواب الجنّة؛ أي: لِمَ لا نكون أغنياء؟ ولماذا البعض غني والبعض فقير؟

أقول:

العمل وحده هو الفارق.

ولكن أيّ عمل؟

العمل المرضي لله تعالى، وهو المرضي للنَّفس والآخر في وقت واحد. ولهذا العمل غير المرضي قد يشبع حاجة، ولكنّه لا يمكّن من نيل المأمول؛

[50] التوبة 105.

فهو قد يجعلك متباهيًا ومتكبّرًا ومفسدًا وهذه الصفات لا تؤدّي بأصحابها إلى الفوز بالمأمول.

ولأنّ الله يريدنا أغنياء بنعيمه في الدّارين؛ فجعل لنا الخيرات في الدَّارين مع الفارق في المقارنة، وللفوز بالعيش النَّعيم قال (اعملوا) وبعث رسله يحثون على العمل؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اعملوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ}[51]. أي اعملوا ما استطعتم حتى تبلغوا الغناء رشدًا (غناء النَّفس والعقل والقلب والمال) بمعنى: اعملوا الخيرات الحسان بلا تردّد، وولّدوا ممّا تعملون آمالًا تطوى بها المسافة بينكم وبين المأمول العظيم الذي ينتظركم. أي: يا فقراء النَّفس ولّدوا الغنى في نفوسكم كلمة طيبة، وولّدوا الغنى في عقولكم فكرة منتجة، وولّدوا الغنى في قلوبكم محبّة لله وعبيده، وولّدوا الغنى في أعمالكم وجهودكم تحدّ للفقر. ولا استغراب؛ فكل شيء ممكن في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع؛ فلا تتأخروا إن أردتم بلوغ الجنّة.

وعليكم جميعًا أن تفكّروا حتى تستطيعوا توليد الفكرة من الفكرة وتوليد الأمل من الأمل، وعليكم بإدارة الزّمن، وعليكم بامتلاك الإرادة التي لا تكون إلّا بقرار منكم؛ فاتخذوه قرارًا، وفي كلّ قرار عليكم بتقوى الله. فإن فعلتم ذلك لا شكّ أن الجنَّة ستقترب منكم أكثر ممّا تقتربون إليها.

---

[51] هود 93.

ومع ذلك فكّروا؛ فالتفكير المتّزن يخرج من التأزمات ويخلّص من الآلام والمواجع. ومنه تولد الفكرة فكرة أعظم؛ فهي وإن كانت فكرة مجرّدة لكنّها قد تتوّلد من الشيء المشاهد أو الملاحظ، كما تتولّد وتستمدّ القوانين من المعطيات الكونيَّة والطّبيعيَّة، ولأنّ الفكرة مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه، ولّدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباهًا لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

فالفكرة لا تلد في الخارج، بل الخارج يستفّز العقل ويُلفته إلى ما يُمكِن أن يُستكشف؛ فيبدأ العقل إعماله تجاه المستفزّ والحيرة تلازمه حتى يبلغه، وحينها لا تجد الحيرة مكانًا لها عند المستكشف معرفة، أي: لا يمكن أن تبقى الحيرة مع التجلّي المعرفي، بل تبقى مع بقاء اللبس والغموض، وفي المقابل تزول بزوالهما.

والفكرة تعد صوغًا عقليًّا لمولودٍ لم يولد بعد؛ وهو بعد الولادة لن يكون فكرة، بل شيئًا غيرها، ولكنّه المؤسّس عليها؛ فلو لم تكن ما كان؛ ولهذا فالفكرة هي استنباط الشيء من الشيء، بعد تهيّئه على الشّكل أو الصّورة أو الرّسالة والموضوع، ممّا يجعل المستنبط في صورة موضوع عام؛ حيث لا تفصيل؛ فالتفصيل لا يكون إلّا للموضوع الذي تمدّدت الفكرة

فيه بداية ونهاية، والفكرة هي الفكرة، والموضوع ارتقاء لا يكون إلّا المفسّر للفكرة إيضاحًا.

فبعد أن تطوّر الإنسان من حياة الفطرة والتقليد إلى حياة الإنباء والفكرة، أصبح يُبدع استكشافًا، وليس خَلقًا؛ ذلك لأنَّ المخلوق لا يَخلق، ولكنّه في دائرة الممكن يكتشف المخلوقات، ثمّ يكتشف منها أسرارًا كانت مجهولة؛ فيكتشفها بحثًا، وتأملًا، واستنباطًا، واستقراءً، ثمّ يوظّفها أملًا بما يعود عليه بالمنفعة، وهكذا هي الحياة والإنسان فيها يتطوّر بالفكرة، ومع ذلك لم يكن التفكير كلّه مؤسّسًا على استنباط الفكرة ارتقاء، بل هناك من الفكرة ما يؤدّي إلى السُفليَّة والانحدار.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدّكتور عقيل حسين عقيل: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (187) مؤلّفا منها: ستَّةُ موسوعات، وهي:

. الموسوعة القيميَّة لبرمجيَّة الخدمة الاجتماعيَّة (4 مجلَّدات)، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

. موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض (11 مُجلَّد)، دار ابن كثير، دمشق. بيروت، 2009م.

. موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن (9 مجلَّدات)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

. موسوعة الأنبياء من وحي القرآن (12 مجلَّد)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

. موسوعة من قيم القرآن الكريم (13 مجلَّد)، شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

. موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة (27 مجلَّد)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية، والتركيَّة.

المؤلّفات

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البُستان الحُلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجيَّة القيميَّة لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجية القيميَّة في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيميَّة في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيميَّة لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيميَّة في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 ـ عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

39 ـ محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

40 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 ـ الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 ـ المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 ـ تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 ـ الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 ـ مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 ـ المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 ـ الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 ـ مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 ـ الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التَّاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطريقة العلمية لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة: 2022م.

164 . أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2022م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشيء دراية، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

168 – استرداد السِّيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م

169 – موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

170 – العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

171 – الرِّجال القوامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

172– الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

173– النشوز والقيم القوَّامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

174 – استطلاع الدراسات السابقة (من حيرة الباحث إلى نيل المأمول)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

175 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (قواعد ومبادئ)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

176 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة، (غرسُ ثقة، تحدّي صِعاب، إحداثُ نُقلة)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

177 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الدور المهني للأخصائي الاجتماعي)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

178 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (من التكيّف إلى صنع الأمل)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

179 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (مجالاتها عمليَّاتها وسائلها)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

180 – الشَّخصيَّة (من الترجّي إلى التحدي)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

181 – الشَّخصيَّة الليبيَّة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

182 – الشَّخصيَّة المتهيّأة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

183 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (دراسة الحالة من النشوز إلى قطع اليد)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

184 – الشَّخصيَّة المتأهِّبة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

185 – الانحراف من النّشوز إلى الضَّرب، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

186 – التدبُّر، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

187 – التفكير (من التذكّر إلى التفكّر)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشريَّة، الولايات المتحدة الامريكيَّة (جامعة جورج واشنطن) 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامًّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرًا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينًا عامًّا للتنمية البشريَّة بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (187) مؤلّفا منها ستة موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/